آيات الصيام: دراسة بلاغية

د. عبدالعزيز بن صالح العمار
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي ـ كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث :

بدأتُ الدراسة بمقدمة بينتُ فيها أهمية الدراسات البلاغية للقرآن الكريم، مبيناً في الوقت نفسه أن القرآن الكريم سيظل مورداً عذباً للدارسين والباحثين، ثم بينتُ أهمية الموضوع، وأسبابَ اختياره، وحاجةَ آيات الأحكام إلى دراسات بلاغية؛ لقلتها، كما أشرتُ فيها إلى المنهج الذي سلكته في هذه الدراسة، وقد صدَّرتُ هذه الدراسة بتوطئة تتعلق ببلاغة آيات الصيام، وحديث موجز عن مناسبة آيات الصيام للمقام الذي جاءت فيه. ثم شرعت في دراسة آيات الصيام دراسة بلاغية. فوقفتُ مع بلاغة هذه الآيات، وبينتُ ما اشتملت عليه من البلاغة في ألفاظها وتراكيبها، وفي صورها البيانية، ومحسناتها البديعية، بينتُ ذلك كله في السياق الذي ورد فيه، وذلك هو الأولى بالدراسات البلاغية. ثم ختمت الدراسة بخاتمة اشتملتْ على أبرز النتائج التي خرجتُ بها، ثم ذيلتُ هذه الدراسة بثبت للمصادر والمراجع، والإفادة منها.

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً أما بعد:

فلا تخفى أهمية الدراسات القرآنية، كما لا تخفى بلاغة القرآن وفصاحته، وأنه الذروة العليا من البيان، كما أن سبب إعجازه، وقصورَ القوم عن معارضته، أو الإتيانَ بمثله ما تميز به من الأساليب البيانية، والأسرار البلاغية، فقد أعجز البلغاء، وحيَّر الفصحاء بحسن نظمه، وروعة أسلوبه، ولذا فهذه الدراسة وأمثالُها إسهام في بيان بلاغة القرآن، والسعي عن كشف هذه البلاغة، وبيان ذلك الإعجاز، ومن هنا جاء التوجه إلى الكتاب العزيز في الدراسات القرآنية، عسى أن يكون ذلك إسهاماً في خدمة القرآن الكريم، وإظهاراً لإعجازه وبلاغته.

بيد أن إعجاز القرآن الكريم لا تحيط به دراسة، ولا يحويه مؤلف، فلا يكشفه إلا تعاقب العلماء عليه، وتعدد الدراسات فيه وتنوعها؛ إذ لا تنقضي عجائبه، ولن ينفرد أحد ببيان إعجازه، فلابد من تضافر الجهود، وحشد الطاقات، وشحذ الهمم والنفوس؛ للنظر في بلاغته وإعجازه، ومن هنا جاءت هذه الدراسة.

وقد قصرتُ هذه الدراسة على آيات الصيام؛ للنظر في أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية، وقد جاء اختياري لهذا الموضوع؛ لأهمية هذه الآيات، فهي تتحدث عن ركن جليل من أركان الإسلام، وهو الصوم، وللصوم منزلة عظمى في الإسلام، ولذا فإن عظمة هذه الآيات وبلاغتها تليق بعظمة هذا الركن، وتتوافق مع مكانته في الدين الإسلامي، ففي هذه الآيات من البلاغة والبيان ما تختص بها، وتميزها عن غيرها؛ لاختصاصها بالحديث عن الصيام؛ لقناعتي التامة أن للموضوع أثراً في انتقاء الألفاظ، وفي تنوع الأساليب البيانية؛ للتعبير عن المعنى المراد، ولإبرازه في أبهى حلة، وأجمل صورة.

كما أن مجيء آيات الصيام في موضع واحد من القرآن الكريم، وعدم تكرار الحديث

عنه مرة أخرى في موضع آخر إشارة إلى أن هذه الآيات قد تضمنت من الحِكَم والأسرار ما جعلها كافية ومغنية عن إعادة الحديث عنها مرة أخرى، ومن ثَم عقدتُ العزم _ مستعيناً بالله – على كشف هذه الأسرار البلاغية لآيات الصيام في هذه الدراسة.

كما أن لآيات الأحكام في القرآن الكريم منزلة عظمى، ومكانة عالية، ففيها التشريع، وعبادات الدين الإسلامي ومعاملاته، فلا بد من الحفاوة بها، والاهتمام بشأنها، وتُعدُّ هذه الدراسة جزاً من هذه الحفاوة، وتعبيراً عن ذلك الاهتمام، كلٌّ في مجال تخصصه، ولكن وإن تعددت الدراسات، وتنوعت المجالات فتلتقي كلها في خدمة القرآن الكريم، في بيان منزلته، وفي إظهار علو كعبه في البلاغة والبيان.

والموضوع جديد– فيما بدا لي – فلم أقف على دراسة حول هذا الموضوع، بل إن دراسة آيات الأحكام في القرآن الكريم دراسة بلاغية قليلة على أهميتها، وجليل نفعها، ولم أقف إلا على دراسة واحدة، وهي دراسة قيمة للدكتور/ سعيد أحمد جمعة، بعنوان: " البلاغة العالية في آية المداينة"، فآيات الأحكام في القرآن الكريم تفتقر إلى كثير من الدراسات البلاغية، ومن هنا جاءت هذه الدراسة، فعساها أن تكون لبنة تُضاف إلى لبنات، وفاتحة لكثير من الدراسات البلاغية.

وأما المنهج الذي سلكته في هذه الدراسة فهو: دراسة آيات الصيام في السياق الذي جاءت فيه في ضوء النظم الذي لفَّها، وأرى أن هذا المنهج هو الأليق بالدراسات البلاغية للقرآن الكريم؛ لِما للسياق من أثر بارز في الكشف عن المعنى، والدلالة عليه.

ولم أرَ من المناسب تقسيم الموضوع إلى مباحث ومطالب؛ وذلك أن دراسة آيات الصيام تقوم على النظر في أسرار هذه الآيات في السياق الذي وردت فيه، فهي دراسة تحليلية، فطبيعة هذه الدراسة لا تتحمل هذه المباحث، ولا تلك التقسيمات؛ فهي دراسة تحليلية لكلٍّ من المفردات، والتراكيب، والصور البيانية، والمحسنات البديعية كلٌّ في سياقها، ولا يخفى أن للسياق أثراً في كشف المعنى، والدلالة عليه، وبهذا المنهج

تسلم الآيات من التجزئة والتقطيع، ويُحفظ – كذلك – بهاؤها ورواؤها، وينكشف شيء من حسن جمالها، وبدائع نظمها.

كما أني لن أتعرض في هذه الدراسة إلى تعريف الصيام، والحديث عن فضائله، ومكانته في الإسلام؛ لأني لن آتي في هذا الموضوع بشيء جديد، فأردتُ أن أنأى بهذه الدراسة عن الإطالة والتكرار فيما لا جدوى فيه ولا جديد، ولذا لم أضع لهذه الدراسة تمهيداً يتضمن هذه الأمور، ولكني صدَّرتُ هذه الدراسة بتوطئة تتعلق ببلاغة آيات الصيام، وبيان ما تشتمل عليه هذه الأحكام من بلاغة وبيان، وحديث موجز عن مناسبة آيات الصيام للمقام الذي جاءت فيه.

كما أني لن أتعرض إلى الأحكام الشرعية لفريضة الصيام؛ للأسباب نفسها إلا بالقدر القليل الذي تسمح به هذه الدراسة من أجل إظهار الأحكام الشرعية التي جاءت الآيات القرآنية بهذا الأسلوب من أجل إبرازها وإظهارها.

وأسأل الله التوفيق والسداد، فإن وُفقتُ إلى ما أريد فذلك فضل منه – سبحانه – وتفضل، وإن كانت الأخرى فمن نفسي والشيطان، وحسبي أني بذلتُ وسعيتُ، والله ولي التوفيق.

* * *

توطئة:

١- أخذت آيات الأحكام حيزاً كبيراً في القرآن الكريم، وشملت مساحة واسعة منه، بل إن آيات الأحكام تمثل الثلث من موضوعات القرآن؛ وذلك أن معاني القرآن: توحيد، وأخبار، وأحكام[١]، وعلى هذا المعنى خرَّج العلماء قول الرسول ﷺ في سورة "الإخلاص": (والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن)[٢]، يقول ابن حجر (ت٨٥٢ هـ) في شرحه لهذا الحديث -: "حمله بعض العلماء على ظاهره، فقال: هي ثلث باعتبار معاني القرآن؛ لأنه أحكام، وأخبار، وتوحيد، وقد اشتملت هي على القسم الثالث، فكانت ثلثاً بهذا الاعتبار".[٣]

٢- إن الناظر في الدراسات البلاغية على كثرتها، وتنوع طرق أصحابها، واختلاف مذاهبهم، وتعدد مشاربهم يجد أن نصيب آيات الأحكام قليلة شحيحة، وأن هذا لأمر عجاب، كما أنه يدعو إلى الوقوف والنظر والتأمل، وإلى المدارسة والمعالجة من قِبل أهل الاختصاص، ومن الخطأ البين، والنقص الذي يلحق المتمين إلى البلاغة وفنون القول أن يغضوا الطرف عن بلاغة آيات الأحكام، فما أقل ما كُتب فيها، فلا تزال آيات الأحكام بحاجة إلى كثير من الدراسات البلاغية، وإلى توافر البلاغين عليها بالدراسة والنظر والتأمل.

وقد يكون سبب عزوف بعض الباحثين عن دراسة بلاغة آيات الأحكام ظنهم أنها تخلو من الأساليب البيانية، والأسرار البلاغية، والخصائص التركيبية التي تكون في غيرها من الآيات الأخرى؛ ظناً منهم أن هذه الآيات تتجه إلى الحكم الشرعي فتذكره مجرداً من كل حلية أسلوبية، مسلوباً من كل ما يزينه، ويحسن عرضه، وهم - إن صدق هذا

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن: ١٧/١ .

(٢) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب: فضل (قل هو الله أحد)، رقم الحديث: ٥٠١٣ .

(٣) فتح الباري: ٦٧٨/٨ .

الظن - قد أخطأوا وأساءوا وأبعدوا النجعة.

٣. آيات الأحكام ليست خاصة بالفقهاء، كما أنها ليست بمنأى عن البلاغي، ونظره فيها، وقد ذكر الدكتور محمود توفيق كلاماً نفيساً يتعلق بهذه القضية، مبيناً ما يتوافر في آيات الأحكام من خصائص بلاغية ربما لا توجد إلا فيها، يقول: " وقد يظن أن ثم ما هو مشغلة الفقهاء وحدهم، وهو المسمى بآيات الأحكام، ولا سبيل للبلاغي إلى تدبره؛ إذ إن مشغلة البلاغي عندهم المعاني الروحية، وأن ثمة ما هو مشغلة البلاغيين دون الفقهاء، كالقصص القرآني، وذلك نهج خاطئ إن لم يكن آثماً، فما من آية إلا وقد تشكل معناها من الشرعي والروحي معاً، ومنزلتها من السياق الكلي للسورة هو الذي يبرز عنصراً على آخر، وبناؤها اللغوي هو الذي يمنح عنصراً جلاء وقرباً إلى الإدراك دون الآخر"[1]، وفي كلامه هذا كثير من اللفتات الرائعة والصادقة، وقد تضمن كلامه الإشارة إلى الفصام النكد والخاطئ فيمن يظن أن هناك فرقاً بين آيات الأحكام وبين غيرها في خصائصها البلاغية، ونكتها البيانية، ومنشأ هذا الوهم ظن مَن يظن خلو آيات الأحكام من الأساليب البلاغية، والخصائص التعبيرية، أو أنها بعيدة كل البعد عن نظر البلاغيين ودراساتهم.

وقد تنبه إلى هذه الحقيقة كثير من العلماء، وأشاروا إليها، ومن هؤلاء: الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦هـ)، فله في ذلك إشارة رائعة، ولفتة منه سابقة إلى هذه القضية، فقد أشار إلى هذه المسألة، ورفع من قدرها، بل جعلها قاعدة من قواعد القرآن الكريم، ذكرها في كتابه النفيس " القواعد الحسان لتفسير القرآن"، وجعلها القاعدة التاسعة، وفي ذكرها، وتقديمها على غيرها إشارة إلى أهميتها، وجليل نفعها، وإدراكه التام إلى مكانتها، ومنزلتها من الدين، وقد عنون لها بقوله (في طريقة القرآن في أمر

(١) سبل الاستنباط من القرآن والسنة: دراسة بيانية ناقدة: ٤٨٣.

المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية)، ثم بيِّن طريقه القرآن ونهجه في عرضه للأحكام الشرعية قائلاً: " قد أمر الله – تعالى – بالدعاء إلى سبيله بالتي هي أحسن، أي بأقرب طريق موصول للمقصود، ومحصل للمطلوب، ولا شك أن الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية هي أحسنها وأقربها، فأكثر ما يدعوهم إلى الخير وينهاهم عن الشر بالوصف الذي منَّ عليهم به، وهو الإيمان، فيقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا، واتركوا كذا؛ لأن في ذلك دعوة لهم من وجهين ... "[1]، ثم أخذ في بيان حِكَم هذا الأسلوب وغاياته التي انطوت تحته، مبيناً السرَّ في اصطفاء القرآن لهذا الأسلوب في خطاب المؤمنين، وتكليفهم بالأحكام الشرعية.

ولسيد قطب (ت ١٣٨٥هـ) قول صائب في هذه القضية، وقد ذكره في سياق حديثه عن آية الدَّين، فقد سبق كلامه هذا حديثَه عن آية الدَّين، أي أنه قال ما قال بعد تجربة وقناعة، وتذوق للنص القرآني، ووقوف مع آية من آيات الأحكام، يقول: " إن الإعجاز في صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز في صياغة آيات الإيمان والتوجيه، بل هو أوضح وأقوى؛ لأن الغرض هنا دقيق، يحرفه لفظ واحد، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ "[2].

وتلك إشارة منه رائعة، وهي أن آيات الأحكام لا تقل عن غيرها، بل تكاد تتفوق عليها، وتتميز عنها؛ لأن موضوعاتها تتطلب هذه الدقة، وتحتم هذه البلاغة؛ لِما يترتب عليها من حكم شرعي، فقد يتغير بسبب حرف زيادة أو نقصاً.

ولذا فإن من بلاغة القرآن الكريم تعبيره عن الأحكام الشرعية بهذا الأسلوب القوي الجزل الآسر الذي يأخذ بالقلوب قبل الأسماع، وإن ذلك لوجه من وجوه إعجاز

---

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن: ٢٦.

(٢) في ظلال القرآن: ١/٣٢٨.

القرآن الكريم، فهو " معنيٌّ بتثبيت الحكم، كما أنه معنيٌّ في الوقت نفسه بتهيئة القلوب؛ لتقبل هذا الحكم؛ وتقتنع به، وتقبل عليه إقبال الشغوف، وليس من البلاغة بيان الحكم دونْ تهيئة النفوس لاستقباله، كما أنه ليس من البلاغة أيضاً الكشف عن المعاني الوجدانية الآسرة للقلوب الباعثة على الأريحية دون تحديد المراد".(١)

ومن هنا جاءت هذه الدراسة للنظر في الأسرار البلاغية لآيات الصيام؛ لقناعتي التامة بأن لها خصائص أسلوبية، وسمات بلاغية تخصها وتميزها عن غيرها، وقد جاءها هذا التميز، وتلك الخصوصية من خصوصية فريضة الصيام، ومن منزلته السامقة في الدين الإسلامي، ولذا صار الركن الرابع من أركان الإسلام، وكما هو معلوم ومقرر في الدراسات البلاغية والنقدية أن الألفاظ تشرف بشرف مضمونها، تسمو بسموه، وتعلو بعلوه، فعسى أن تكون هذه الدراسة موفَّقة فيما تصبو إليه، مُسدَّدة في بيان ما ترنو إليه.

٤- إن الناظر في آيات الصيام يجد أن جميع آياتها ذُكرتْ في موضع واحد، ذُكرتْ كلها في سورة البقرة، ولم تُكرر مرة أخرى، شأن بقية الموضوعات في القرآن الكريم التي يتم تناولها في أكثر من موضع، وفي أكثر من سورة، وفي أكثر من طريقة؛ تبعاً لمنهج القرآن الكريم في تصريفه للمعاني والأحكام، فيعدد ذكرها، وينوع في عرضها وطرحها؛ بناء على الغرض الذي تُساق له تلك الآيات، كل حسب موضعها، بيد أن آيات الصيام لم تُذكر إلا في مقام واحد، واختُص ذكرها في سورة البقرة.

٥- ثمة ارتباط وثيق بين آيات الصيام وسورة البقرة، يتجلى منه العلاقة الوطيدة بينهما، وبيان ذلك: أن الغرض الرئيس من فريضة الصيام هو تقوى الله - عزَّ وجل - وقد صُرح بذلك الغرض في أول آية من آيات الصيام في قوله - تعالى - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) البلاغة العالية في آية المداينة: ٢٩ .

﴿ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ، وهذا الغرض ظاهر لا يخفى، وهو متحقق لمن صام وقام إيماناً واحتساباً، وتأكيداً على هذه الغاية وتذكير بها خُتمت آيات الصيام بالحديث عن التقوى في قوله ﴿ ...كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، ولذا فثمة ارتباط وثيق بين التقوى والصيام، فهي أجل حكم الصيام، وأكبر غاياته، ولذا ذُكرتْ في أول آيات الصيام، وخُتم الأمر بها كذلك؛ تذكيراً بها، وحثاً عليها.

٦- الناظر في آيات الصيام، المتأمل لموقعها يجد أنها سُبقتْ بكثير من الأحكام الشرعية، فكانت توطئة لآيات الصيام، وكأنها كانت تمهد لها، فقد سُبقت بآيات القصاص، وبآيات الوصية، وذلك في قوله :﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌۢ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُولِي الْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ .[1]

المتأمل لهذه الأحكام يجد أن الأمر فيها قد بدأ بالشاق العسير، ومن ثم أُخذ في التدرج من الأشد إلى الذي يليه في الشدة، فقد جاء الأمر - أولاً - بذكر القصاص، وبيان أحكامه، وهو أشد الأحكام، وأكثر إيلاماً للنفس؛ ففيه زهق للروح، ثم جاء بعد ذلك الأمر بالوصية، وهي من الأهمية بمكان؛ فهي تتعلق بالمال، والمال عديل الروح، وله علوق بالنفس، ثم جاء بعد ذلك الحديث عن الصيام، وهو أقل الأمور مشقة [2]، ولا شك أن هذا التدرج صورة من صور تيسير الله بعباده المؤمنين.

---

(١) البقرة: ١٧٨-١٨٢

(٢) انظر: تأملات في سورة البقرة: ٢/١٠٠٠

كما أن ذكر الصيام في هذا الموضع يتوافق مع ترتيبه في الإسلام، فهو الركن الرابع من أركان الإسلام، ولذا فقد سُبقت هذه الآيات بالحديث عن الإسلام، وعن الصلاة، وعن الزكاة من خلال الحديث عن الأموال، وعن الوصية [1]، ومن ثم جاء الحديث بعد ذلك عن الصيام، فكان ذلك منتظماً مع موقعه في الإسلام، ومن هنا يتبين بلاغة موقعه في هذا الموضع، والله أعلم بأسرار كتابه.

آيات الصيام دراسة بلاغية:

آيات الصيام:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [2]

سأقف في هذه الدراسة مع آيات الصيام وقفة بلاغية تحليلية؛ لبيان ما اشتملت عليه من البلاغة في ألفاظها وتراكيبها، وفي صورها البيانية، ومحسناتها البديعية، وغير ذلك

(١) انظر: البحر المحيط: ٢/٣٥.

(٢) البقرة: ١٨٣-١٨٧.

مما يتميز به نظم القرآن الكريم، سأنظر في ذلك كله من خلال السياق الذي جاءت فيه.

استُفتحتْ آيات الصيام بنداء المؤمنين في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهذا الحرف – كما يقول الزمخشري (ت٥٨٣ هـ) –" موضوع في أصل اللغة لنداء البعيد، وهو صوت يهتف به الرجل لمن يناديه، ثم استُعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب؛ تنزيلاً له منزلة من بعد "[1]، ثم يذكر الزمخشري سؤالا ويجيب عنه، في بيان السر في توافر النداء في كتاب الله، يقول: "لقد كثر النداء على هذه الطريقة في كتاب الله مالم يكثر في غيره؛ وذلك لاستقلال هذا النداء بأوجه من التأكيد، وأسباب المبالغة، لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده ... مما أنطق به كتابه أمور عظام، وخطوب جسام، ومحال عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم، وبصائرهم وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن يُنادوا بالآكد الأبلغ".[2]

ولذا فإن النداء بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مزيد عناية بهم، وتشريف لهم بوصفهم بالإيمان، ومناداتهم به، كما أن في ذلك توطئة لأمرهم بالصيام، وتهيئة نفوسهم لتقبل هذه الأحكام، ومن ثَم العمل بها، فكأنه يقول لهم: لأنكم مؤمنون منقادون مسلمون، فقد أمرتكم بالصيام، وفرضته عليكم، ومن لوازم إيمانهم بربهم، وإذعانهم له قبولهم هذه الأحكام، والعمل بها، والرضا التام بها، ولذا فلسان حالهم يقول: سمعنا وأطعنا، ومن هنا جاء مناداتهم بالإيمان في هذا المقام إشارة إلى المعنى، ودلالة عليه، ولعل هذا هو السرّ في ورود النداء مع كثير من الأحكام الشرعية، كما تجلى ذلك في آيات القصاص، وفي غيرها من الأحكام الشرعية.

وقد ذكر القونوي (ت ١١٩٥هـ)، السرَّ البلاغي في استفتاح آيات الصيام بالنداء،

---

(١) الكشاف: ١/٢٢٤.

(٢) المصدر السابق.

يقول: " بيان لحكم آخر من الأحكام الشرعية على وجه التلاقي؛ لِما فرط من المخلين بما ذكر من أصول الدين والفروع التي يدور عليها صلاح المعاش والمعاد، ولما وقع أهل الكتاب في الخلل في الصوم المشروع خص فريضة الصيام بالذكر هنا إثر بيان كتب القصاص والوصية؛ لأنهما مما فرط فيه أهل الكتاب، وتكرار النداء؛ لما فيه من المشقة على النفوس غير المطمئنة، أقبل عليهم بالخطاب؛ جبراً لكلفة المشقة بلذة المخاطبة، وإنما لم يكرر في الوصية؛ لقرب عهد ذكر النداء، مع أن فيها سهولة؛ لكونها حين مفارقة الدنيا، والتوجه إلى العقبى، وعدم الاحتياج إلى المال الأفنى".[1]

وفي إسناد الفعل ﴿كُتِبَ﴾ إلى مالم يُسمَّ فاعله لطيفة مهمة، وإشارة بالغة في مقام الأمر والتكليف، فقد حُذف الفاعل؛ وذلك لأسرار بلاغية؛ وذلك للعلم به، وهو الله - سبحانه وتعالى - ، فهو وحده الذي يكلف عباده، بيد أن ثمة سراً لطيفاً في مجيئه بهذه الصورة، وبيان ذلك: أن في هذه الآيات تكليفاً شاقاً على نفوس المؤمنين؛ وذلك أن فيه منعاً لهم من التمتع بملاذ الأكل والشرب، كما أن فيه منعاً لهم من التمتع بالنساء، فكان من البلاغة في ذلك ألاَّ تُنسب هذه التكاليف الشاقة إليه - سبحانه -، فهو أهل المغفرة والرحمة، ولعل هذا هو السرّ في مجيء لفظة ﴿كُتِبَ﴾ بهذه الصيغة في كثير من التكاليف الشرعية، كما تجلى ذلك في آيات القصاص في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ...﴾، وكذلك في آيات الوصية في قوله ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ...﴾، ومن العجيب في هذا الباب - وذلك سرٌّ من أسرار القرآن الكريم، ولطيفة من لطائف البيان كما يذكر ذلك أبو حيان الأندلسي(ت ٧٤٥هـ) [2] – مجيء

(١) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: ١٨/٢ .

(٢) انظر: البحر المحيط: ٣٥/٢ .

لفظة " كَتَبَ " مبنية للمعلوم في سياق الامتنان والرحمة بالمؤمنين، ومن ذلك قوله ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ...﴾[1] ، وقوله ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ...﴾[2] ، وقوله ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ ...﴾[3] وغيرها من الآيات.

وفي تقدم الجار والمجرور " عليكم" على كلمة " الصيام" في قوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ في ذلك إشارة إلى الاهتمام بأمر المؤمنين، فهم المأمورون بالصيام، ، كما أن في تأخير لفظة "الصيام" تشويقاً لها، فستظل نفوس المؤمنين مترقبة لها، منتظرة الأمر، فيأتي الأمر بعد ترقب وتشوق، وحينها يستقر الأمر في وجدانها، وتعتنقه أتم اعتناق، وتقوم به على الوجه المطلوب منها في الأداء.

وقد تضمن قوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ الإيجاب القاطع، والدلالة النصية بفرضية الصيام على المؤمنين، ففي لفظة "كُتب" الإشارة إلى الوجوب، وذلك أن معنى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي فُرض عليكم، وذلك هو معنى الكلمة في القرآن الكريم حيثما وقعت فيه كما يذكر ذلك الفراء (ت ٢٠٧ هـ).[4]

كما أكد هذا المعنى وقرره القونوي (ت١١٩٥ هـ)، يقول: " ومعنى "كُتِبَ" فُرض، وأصل الكتابة الخط، واستُعملتْ في الإلزام والإيجاب مجازاً؛ لاستلزام الخط الإلزام، ثم صار حقيقة عرفية، ومنه الصلاة المكتوبة، قال – تعالى – ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ ".[5]

وقد بيَّن هذا المعنى وأظهره حرف الجر "على" – بدلالته على الاستعلاء – في قوله

---

(١) الأنعام: ٥٤ .

(٢) المجادلة: ٢١ .

(٣) المجادلة: ٢٢ .

(٤) انظر: معاني القرآن: ١/١١٠، للفراء.

(٥) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: ٢/٧

﴿عَلَيْكُمُ﴾ ؛ وذلك أن فيه "دليلاً على وجوب هيمنة هذا الحكم على الأمة المسلمة، وعدم التسامح فيه، والتهاون في تنفيذه". (١)

جاء التشبيه في قوله ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تأكيداً للوجوب، ومتمماً له، وليدل على أن فريضة الصيام لم تكن على هذه الأمة وحدها، بل هي فريضة قديمة، كتبها الله على الأمم السابقة كلها، يدل على ذلك ويؤكده قول الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) - في معرض حديثه عن هذا التشبيه ودلالاته – يقول: "يعني ذلك أن الصوم عبادة قديمة أصلية، ما أخلى الله أمة من افتراضها عليهم، لم يفرضها عليكم وحدكم "(٢)، وجاء المفسرون بعد الزمخشري فذكروا هذا المعنى وقرروه، يقول البيضاوي(ت٦٨٥ هـ)، : "وفيه توكيد للحكم، وترغيب في الفعل، وتطيب على النفس "(٣)، كما أكد هذا المعنى وقرره الشهاب(ت ١٠٦٩هـ)، يقول - في معرض شرحه لكلام البيضاوي السابق - : "ووجه التوكيد يعلم من كونه فرضا على جميعهم، فهو مما يهتم به، وقوله (وتطيب على النفس) أي تسهيل عليها، وقيل: إنها إشارة إلى أن المشقة إذا عمت طابت "(٤)، وفي هذا إشارة إلى أن الأمة الإسلامية امتداد للأمم المؤمنة التي سبقتها، فهي تسير على خطاها، وتقتفي أثرها، وتلتزم بما التزمت به، ولهذا فهاهو الصوم يُفرض عليها كما فُرض على الذين من قبلها، وهذه الأمة خير الأمم فلا غرو أن يُفرض عليها، ولا غرو أن تقوم به خير قيام.

وإن كان المعنى الذي وقع عليه التشبيه هو: مدة الصيام دون غيره، كما يذكر ذلك

---

(١) تأملات في سورة البقرة: ٢/٩٧٣ .

(٢) الكشاف: ١/٣٣٤ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١/٢١٦ .

(٤) عناية القاضي وكفاية الراضي: ٢/٢٧٥ .

الطبري(ت ٣١٠هـ)، ويرجحه على غيره، فقد ذكر في تفسيره " أن التشبيه إنما وقع على الوقت؛ وذلك أن من كان قبلنا إنما فُرض عليه صوم شهر رمضان مثل الذي فُرض علينا سواء ".(١)

وقد دلَّ التشبيه على أهمية الصيام، ففيه الإشارة إلى عِظم الصيام، وما تضمنه من الحِكَم والمصالح، تشهد بذلك العقول السليمة، والفطر المستقيمة، ولذا شرعه الله، وفرضه عليهم؛ رحمة بهم وإحساناً(٢)، وفي ذلك دلالة على أن الصوم ركن ركين في كل دين، فهو من أقوى العبادات، كما أنه وسيلة مهمة في تهذيب النفس وإصلاحها، ولذا فرضه الله علينا، وعلى الأمم السابقة، كما أن فيه إشارة إلى وحدة الدين في مصدره، وفي أصوله ومقاصده، وفي هذا تأكيد لفرضية الصيام، وترغيب فيه.(٣)

وقد أشار الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) إلى أغراض التشبيه في قوله ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وبيّن مقاصده وحِكمه، وذكر "أغراضاً ثلاثة تضمنها التشبيه:

أحدها: الاهتمام بهذه العبادة، والتنويه بها، فقد شرعها الله قبل الإسلام لمن كانوا قبل الإسلام، وشرعها للمسلمين؛ وذلك يقتضي اطراد صلاحها، ووفرة ثوابها، وإنهاض همم المسلمين لتلقي هذه العبادة؛ كي لا يتميز بها من كان قبلهم.

الغرض الثاني: أن في التشبيه بالسابقين تهويناً على المكلفين بهذه العبادة أن يستثقلوا هذا الصوم.

الغرض الثالث: إثارة العزائم؛ للقيام بهذه الفريضة؛ حتى لا يكونوا مقصرين في قبول هذا الفرض؛ بل ليأخذوه بقوة تفوق ما أدى به الأمم السابقة ".(٤)

---

(١) جامع البيان: ١٥٦/٢.

(٢) انظر: محاسن التأويل: ٤١٤/٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن الحكيم: ١٤٣/٢.

(٤) التحرير والتنوير: ١٥٧/٢.

وسيظل في هذا التشبيه ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ مزيداً لمن يتأمله، وينعم النظر فيه، كما أن فيه إشارة مهمة في هذا السياق ستأتي الإشارة إليها في ثنايا هذه الدراسة أتركها لذلك المقام؛ لأنها به ألصق وأعلق.

وقد جاءت الفاصلة في قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ مكينة في بابها، بليغة في مقامها، فقد بينتْ الغاية من فريضة الصيام، بدلالة قوله ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ و" لعل" هنا للترجي، وهو ترجٍ في حق العباد، فموضعه هنا المخاطبون لا المتكلم، فهم المأمورون بالصيام، وهم الذين يترقبون بصيامهم منزلة التقوى.(١)

كما أنه يُهوِّن لذائذ الدنيا ويصغرها في عين الصائم؛ لكونه يحدُّ من شهوة البطن والفرج، فمن هان عليه هذان الأمران خفت عليه مؤنتهما، فكان ذلك رادعاً له عن ارتكاب المحرمات والفواحش، وكان ذلك سبباً في امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وتلك هي التقوى، وهي الغاية من فرضية الصيام.(٢)

حُذف متعلق " تتقون " في قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فلم تُذكر الأمور التي يتقيها المسلمون بصيامهم، وثمة سرٌّ لطيف وراء هذا الحذف، وهو إرادة العموم، فالمراد بذلك: أن يتقوا كل شيء من شأنه أن يقربهم من سخط مولاهم عليهم، وهي كثيرة لا حصر لها، ولو ذُكر متعلق " تتقون " لانحصر الذهن في المذكور، وهذا لا يصح، ولذا فإن الغرض من هذا الحذف هو: أن تذهب النفس في تقديره كل مذهب، لكي تحذر كل المحظورات وتتجنبها، وتلك هي التقوى الذي جُعل الصوم سبباً موصلاً إليها.

وقد ذكر البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، في تفسيره تقدير هذا المحذوف، يقول: "﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعاصي؛ فإن الصوم يكسر الشهوة التي هي مبدأها، كما قال – عليه السلام

(١) انظر: معاني القرآن: ٢٥٢/١، للزجاج، و: تفسير القرآن الحكيم: ١٤٣/٢.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ٦٠/٥، و: تيسير الكريم الرحمن: ١٤٣/١.

– "فعليه بالصوم، فإن الصوم له وجاء".[1]

وللشيخ عبدالرحمن السعدي (ت١٣٧٦هـ) كلام نفيس أشار فيه إلى بلاغة هذا الحذف، وبيّن أنه طريقة من طرق التعبير القرآني، وقاعدة من قواعده التي يسير عليها، فذكر أن من بلاغة القرآن الكريم أنه يحذف متعلق المعمول، ذكر ذلك في كتابه " القواعد الحسان لتفسير القرآن"، ذكر فيه سبعين قاعدة من قواعد القرآن الكريم، وذكر هذه القاعدة، وجعلها الرابعة عشرة، وفي تقديمها على غيرها؛ إشارة إلى أهميتها، وأنه من القواعد الأساسية في تعبير القرآن عن مقاصده، يقول: "حذف متعلق المعمول فيه يفيد تعميم المعنى المناسب له، وهذه قاعدة مفيدة جداً متى اعتبرها الإنسان في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة؛ وذلك أن الفعل وما هو معناه متى قُيِّد بشيء تقيد به، فإذا أطلقه الله –تعالى – ، وحذف المتعلق كان القصد من ذلك: التعميم، ويكون الحذف هنا أحسن، وأفيد كثيراً من التصريح بالمتعلقات، وأجمع للمعاني النافعة".[2]

وساق لذلك كثيراً من الشواهد، وكان مما ذكره من الشواهد: آية الصوم التي معنا، فأشار إلى بلاغة حذف المتعلق في قوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فبين حكمته وأسراره قائلاً: "يفيد كل ما قيل في حكمة الصيام، أي لعلكم تتقون المحارم عموماً، ولعلكم تتقون ماحرم الله للصائمين من قول الزور، والعمل به، ومن كل الأحوال السيئة والخبيثة، وتتقون وتتجنبون المفطرات، والممنوعات، ولعلكم تتصفون بصفة التقوى، وتحصلون على ما يقيكم مما تكرهون، وتتخلقون بأخلاقها".[3]

وبعد أن ذكر – سبحانه – فرضية الصيام، شرع بعد ذلك في ذكر أحكامه وأيامه في

---

(١) أنوار التأويل وأسرار التنزيل: ٢١٦/١ .

(٢) القواعد الحسان لتفسير القرآن: ٤٦ .

(٣) المصدر السابق: ٤٧ .

قوله ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقد تمَّ التعبير عن شهر الصيام بقوله ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ وفي ذلك كثير من الأسرار البلاغية، وبيان ذلك: أن المراد بالأيام المعدودة شهر رمضان كاملاً، كما بيّن ذلك ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، ورجحه على غيره من الأقوال[١]، ولذا فإن قوله ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾ كناية عن القلة، يدل على ذلك معناها، إذ المراد بالمعدودات: المُحصيات، فهي الأيام التي تُعد ساعاتها، وتُحصر أوقاتها؛ لكونها مؤقتات بعدد معلوم؛ إذ يحصرهن العدد.[٢]

وقد ورد وصف "معدودات" في القرآن كثيراً، وكان المراد به الكناية عن القلة، ومن ذلك قوله ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً...﴾[٣]، وقوله ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ...﴾[٤]، وتتجلى بلاغة الكناية في آيات الصيام أن فيها تيسيراً وتخفيفاً على المكلفين؛ لكون هذا الشهر أياماً معدودات، وكأن المعنى أن الله – سبحانه وتعالى – يريد أن يقول لنا: " إني رحمتُكم، وخففتُ عنكم؛ حين لم أفرض عليكم صيام الدهر كله، ولا صيام أكثره، ولو شئتُ لفعلت ذلك، ولكني رحمتُكم، وما أوجبتُ الصوم عليكم إلا في أيام قليلة".[٥]

إذن فهذه هي الأيام التي فرض الله علينا صيامها، وذلك هو المراد بها، وجاءت لفظة ﴿أَيَّامًا﴾ منصوبة لتدل على هذا المعنى، وتشير إليه؛ وذلك أنها منصوبة بفعل محذوف

---

(١) جامع البيان: ٣/١٥٩.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٣/١٦٠.

(٣) البقرة: ٨٠.

(٤) يوسف: ٢٠.

(٥) التفسير الكبير: ٥/٦٣.

تقديره: صوموا أياماً معدودات، وذلك هو أرجح الأقوال، وأولاها بالصواب[1]، ويتجلى في هذا التقدير: الأمر الصريح بالصيام، وفرضيته على المسلمين، كما أن في حذفه مظهراً من مظاهر التيسير والتخفيف، وفي ذلك تناغم مع دلالة وصف الأيام بأنها معدودات، في كونها كناية عن القلة المتضمنة رحمته – سبحانه – بعباده، وتخفيفه عليهم فريضة الصيام.

تضمن نظم الآية كثيراً من الأسرار البلاغية، وقد تمَّ توظيفها في بيان هذه الأحكام وإيضاحها، فقد تقدم متعلق خبر "كان" في قوله ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، وفي هذا التقديم عناية بحال المخاطبين بهذه الأحكام، واهتمام بشأنهم، فقد جاءت هذه الآيات مفصلة أحكام الصيام المتعلقة بهؤلاء المكلفين، بل إن الصيام ما شُرع إلا رحمة بهم، وعناية بشأنهم، ومن هنا جاء التقديم إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه، فقد فُرض الصيام عليكم، وشُرعت الأحكام لكم، فأنتم مدار الأمر، ومحل الحكم، فلا غرو بعد هذا أن يُقدم الضمير المتعلق بهم؛ اهتماماً بشأنهم، وحفاوة بأمرهم.

كما ورد في الآية – أيضاً – تقديم المرض على السفر، وكأن في هذا إشارة إلى أن المرض من أكثر الأسباب الداعية إلى الفطر في رمضان بخلاف السفر، فقلة من يُنشأ السفر في رمضان، بل إن كثيراً من المسلمين من يؤجل سفره خلال شهر رمضان؛ بغية الصيام مع المسلمين، بخلاف المرض، فالناس أكثر عرضة له، وإصابة به من السفر، كما أنه لا خيار لهم في وقته ولا مدته، ولذا فقُدم ذكره في آيات الصيام لهذا الغرض، والله أعلم بأسرار كتابه.

وفي قوله ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ استعارة تبعية بالحروف، بدلالة حرف الجر " على" على

(١) انظر: معاني القرآن: ٢٥٢/١، للزجاج.

الاستعلاء، وقد ذكر هذه الاستعارة ونوعها، محيي الدين زادة (ت ٩٥١هـ)، يقول: " شبه تلبسه بالسفر باستعلاء الراكب واستيلائه على المركوب، يتصرف فيه كيف يشاء، وللدلالة على هذا المعنى عُدل عن اسم الفاعل، فلم يقل مسافراً؛ إذ ليس فيه إشعار بالاستعلاء على السفر "[١]، وكذلك هو رأي الشهاب(ت١٠٦٩ هـ)، فهو يرى أنها استعارة تبعية، يقول: " وقوله (أو راكب) إشارة إلى أن كلمة "على" استعارة تبعية، شبه تلبسه بالسفر باستعلاء الراكب واستيلائه على المركوب، يتصرف فيه كيف يشاء ".[٢]

وفي هذه الاستعارة إشارة إلى أنه لا يكفي إرادة السفر لكي يُباح له الفطر، بل لا بد من الشروع فيه، ولذا ذكر بعض الفقهاء أن المسافر لا يحل له الفطر في نهار رمضان إذا أراد السفر إلا إذا فارق بيوت قريته ونحوها[٣]، وفي هذه الاستعارة إشارة إلى هذا المعنى، ومن هنا تتجلى بلاغة الاستعارة وأهميتها في هذا المقام، فقد وُظفت دلالتها في بيان أحكام السفر.

ومن أجل الاستعارة ودلالتها في هذا السياق آثر النظم القرآني المغايرة بين قوله ﴿مَّرِيضًا﴾ وقوله ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ ولو تمت المراعاة اللفظية بينهما لقيل: (أو مسافراً)، وذلك أن قوله ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ في محل نصب معطوف على خبر كان، والتقدير: أو كان مسافراً.[٤]

وقد تضمن قوله ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ الإشارة إلى قضاء الأيام التي أفطرها الصائم

---

(١) حاشية زادة على تفسير البيضاوي: ٤٩١/١ .

(٢) عناية القاضي وكفاية الراضي: ٢٧٦/٢، اخترتُ هذا القول واقتصرتُ عليه؛ لكونه الأقرب لمعنى الآية وبلاغتها، ولبعده عن التكلف، وإلا فثمة رأي آخر لنوع الاستعارة في قوله ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ للوقوف على الآراء الأخرى في بيان نوع الاستعارة، انظر: حاشية القونوي: ٢١/٣ .

(٣) انظر: حاشية الروض المربع: ٣٧٦/٣ .

(٤) انظر: إملاء ما منَّ به الرحمن: ٨٠/١، و: التفسير الكبير: ٦٤/٥ .

أيام مرضه أو سفره، ولذا فهما مأموران بالقضاء عدد الأيام التي تمَّ الفطر فيها بعد رمضان.[1]

كما تضمن قوله ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ حذفاً لطيفاً، بل هو من روائع الحذف وبدائعه، وبيان ذلك: أن بين الشرط وجوابه محذوفاً لا يستقيم الكلام إلاَّ به، والتقدير: (فأفطر فعدة من أيام أخر)، فحُذف قوله "فأفطر"؛ وذلك ثقة بظهوره، وذلك أن المعنى لا يستقيم إلا بهذا التقدير، ونظير هذا الحذف في كتاب الله قوله – تعالى - ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2] أي فضرب البحر فانفلق، ومعلوم أن البحر لم ينفلق إلاَّ بعد ضربه، ولذا حُذف لظهوره، وكذلك الشأن في آية الصيام، فإن الصائم لن يقضي من شهر رمضان إلاَّ إذا أفطر منه، وتتجلى بلاغة الحذف أن فيه إيجازاً، وقد أدى هذا الإيجاز إلى تلاحم الكلام وترابطه، كما أن فيه صيانة له من الترهل والإطالة فيما لا طائل له، كيف وقد اتضح المراد، وتبين المقصود.

كما أن ثمة حذفاً آخر في الآية، وذلك أن قوله ﴿فَعِدَّةٌ﴾ مرفوعة بالابتداء، فخبرها محذوف، والتقدير: فعليه عدة[3]، وقد ذكر البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، هذا التقدير، وبسط القول فيه، يقول: " أي فعليه صوم عدد أيام المرض أو السفر من أيام أخر إن أفطر، فحذف الشرط والمضاف إليه؛ للعلم به "[4]، تتجلى بلاغة هذه التقديرات أن فيها إشارة إلى وجوب العدة، بدلالة حرف الجر "على".

وهناك قراءة أخرى للفظة "عدة"، فقد قُرئتْ بالنصب، وتقدير المحذوف: – كما يذكر

---

(١) انظر: تفسير القرآن: ٢٢٨/١.

(٢) الشعراء: ٦٣.

(٣) انظر: معاني القرآن: ٢٥٢/١، للزجاج.

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢١٦/١.

الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) - " أي فليصم عدة، وهذا على سبيل الرخصة، وقيل: مكتوب عليهما إن أفطرا أن يصوما عدة "[(١)] ، وهكذا تتعدد التقديرات بناء على قراءة كل لفظة سواء بالرفع أو النصب، ويكمن خلف هذه التقديرات بلاغة الحذف ودلالاته، ولكل تقدير علاقة بآيات الصيام وأحكامه، ومن هنا تتجلى بلاغة أسلوب الحذف في هذا الآيات فقد تمَّ توظيفه توظيفاً بليغاً في بيان هذه الأحكام وإظهارها، ولا غرو أن يكون للحذف هذا الأثر، وتلك المكانة؛ وذلك أنه " باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد من الإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم بياناً إذا لم تبن " .[(٢)]

والمراد بالذين "يطيقونه" الذين يقدرون على صيامه، وهم المقيمون المعافون من الأمراض، مأخوذ من الطوق، وهو الوسع والقدر، والمراد الذين: يكلفونه، وفي بناء اللفظة وإيحائها دلالة على المعنى المراد بها، وإشارة إليه، يدل على ذلك – أيضاً – القراءة الأخرى، فقد قُرئت "يطوَّقونه" [(٣)]، وقد تضمنت هذه القراءة الإشارة إلى شدة الصيام وصعوبته، خصوصاً في أيام الحر، إذا طال النهار، واشتدت حرارته، ولذا كان الذين يطيقونه مخيرين بين الصيام والإفطار، وكان هذا في بداية فرض الصيام .

كما أن تقديم قوله ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ على قوله ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، وتأكيد له، وفيه - أيضاً - اهتمام بهم، وعناية بشأنهم، ولذا فقد خُيِّروا في بداية فرض الصيام بين الصيام والإطعام، ثم نُسخ فكان من طاق الصيام " من

(١) الكشاف: ١/ ٣٣٥ .

(٢) دلائل الإعجاز: ١٤٦ .

(٣) انظر: إملاء ما منَّ به الرحمن: ١/ ٨١ .

المقيمين صامه إن شاء، وإن شاء أفطر وافتدى، فأطعم لكل يوم أفطره مسكيناً".[1]

وقد تضمن قوله ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ حذفاً لطيفاً، وقد ذكر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) تقدير هذا المحذوف، يقول: "وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر بهم إن أفطروا"[2]، وقد زاد هذا الأمر بياناً القونوي (ت١١٩٥ هـ)، في شرحه لكلام البيضاوي في تفسيره لهذه الآية، يقول: "وقوله (وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا) حذفَ الشرط؛ للعلم به، وهذا يؤيد ماسبق من أن الواجب مقيد بالإفطار، وإلا فيلزمهم أن يقولوا بالوجوب هنا أيضا ولم ينقل عنهم".[3]

وفي قوله ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ مجاز مرسل، باعتبار ما سيكون، فليس هو طعاماً للمسكين قبل تملُّكه، وحصوله عليه، ولكن أُضيف الطعام إليه باعتبار ما سيؤول إليه، تتجلى بلاغة المجاز في آيات الصيام، وفي هذا المقام أن فيه إشارة إلى أن هذه الفدية – وهي الإطعام – أمر محقق، واجبة على من أفطر، فكأن هذا الطعام قد خرج من يده، ومِنْ مُلْكِه، وصار في مُلْك المسكين؛ لأنه حق من حقوقه، يدل على ذلك قول العكبري (ت ٦١٦ هـ)، "وليس الطعام للمسكين قبل تملكه إياه، فلو حُمل على ذلك لكان مجازاً؛ لأنه يكون تقديره فعليه إخراج طعام يصير للمساكين، ولو حُملت الآية عليه لم يمتنع؛ لأن حذف المضاف جائز، وتسمية الشيء بما يؤول إليه جائز".[4]

وثمة قراءة أخرى لكلمة "مسكين" فقد قُرئت بالجمع "مساكين"[5]، وفي هذه القراءة

---

(١) جامع البيان: ٣/١٨٠.

(٢) الكشاف: ١/٣٣٥.

(٣) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: ٢/٢١.

(٤) إملاء ما منَّ به الرحمن: ١/٨١.

(٥) انظر: إملاء مامنَّ به الرحمن: ١/٨١.

إشارة لطيفة متعلقة بالفدية، فقد جاءت مجموعة مقابلة للفظة "يطيقونه" فقابل الجمع بالجمع، وبيان ذلك: أن الذين يطيقونه جماعة، وكل واحد منهم يلزمه مسكين، فجاء الجمع إشارة إلى هذا المعنى[1]، وهو معنى حسن، وإشارة لطيفة تضمنتها لفظة " مساكين" حين جاءت جمعاً.

وأما من قرأ "مسكين" بالإفراد ففيها – أيضاً – معنى لطيف آخر، وهو الإشارة إلى أن المعنى: على كل واحد طعام مسكين واحد لكل يوم أفطره[2]، فالمسكين يقابل اليوم الذي تمَّ الفطر فيه، وقد أشار ابن عطية الأندلسي (ت٥٤٦ هـ) إلى الإفراد وبلاغته، يقول: " فإن قلت: كيف أفردوا المساكين، والمعنى على الكثرة؛ لأن الذين يطيقونه جمع، وكل واحد منهم يلزمه مسكين، فكان الوجه أن يُجمعوا، كما جُمع المطيقون؟ فالجواب: إن الإفراد حسن؛ لأنه يُفهم بالمعنى أن لكل واحد مسكيناً، ونظير هذا قوله – تعالى - ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾[3]، فليست الثمانون متفرقة في جميعهم، بل لكل واحد ثمانون".[4]

وفي قوله ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ إيجاز قِصَر، فقد حوت هذه الجملة كثيراً من المعاني التي يتعذر حصرها، والوقوف عليها، كما أن فيها كثيراً من الأحكام المتعلقة بالصيام، والإفطار، والفدية، وقد تمَّ التعبير عنها واحتواؤها بهذه الألفاظ القليلة، وقد أشار الإمام الطبري (ت ٣١٠هـ) في تفسيره إلى هذا الإيجاز، يقول – بعد أن ذكر كثيراً من الأقوال والأحكام التي تضمنتها - : " والصواب من القول: أن الله – تعالى ذكره – عمَّ بقوله ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فلم يخصص بعض معاني الخير دون بعض، فجمعُ

(١) انظر: التفسير الكبير: ٥/ ٧٠.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٥/ ٧٠.

(٣) النور: ٤.

(٤) المحرر الوجيز: ١/ ٢٥٢.

الصوم مع الفدية من تطوع الخير، وزيادة مسكين على جزاء الفدية من تطوع الخير، وزيادة المسكين على قدر قوت يومه من تطوع الخير... لأن كل ذلك من تطوع الخير، ونوافل الفضل".[1]

كما أن قوله ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ من إيجاز القِصَر – كذلك - فقد حوتْ الجملة كثيراً من المعاني التي يتعذر حصرها، والإحاطة بها، وإنما نعدُّ منها ولا نعددها، فقد حوت الخير المطلق، فهو وعد من الرب الكريم أن من فعل خيراً فإن له مقابل ذلك خيراً عظيماً، وحسبك بخير صادر من رب كريم! كيف وقد ذُكر في سياق الجزاء والثواب، فهو – سبحانه – أهل الكرم والجود، يداه سحاء، ولذا فيتعذر على الفكر حصر هذه الخير، والوقوف عليه، وإنما نعدد منه، وإلا فإن فضل الله لا يحصيه العدد، ولا يحيط به الحصر.

ثم ختم – سبحانه – الآية بالحث على الصيام في قوله ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، والمعنى: فاعلموا ذلك أيها المؤمنون، وصوموا، فهو خير لكم.[2]

اجتمع نوعا الإيجاز في قوله ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾؛ وذلك أن فيها حذفاً وقِصَراً، فتقدير المحذوف: خير لكم من الإطعام، وقد حُذف؛ لوضوحه؛ لدلالة المقام عليه[3]، فقد ذُكر ذلك في سياق المفاضلة بين الصيام والإفطار، فذكر – سبحانه – أن الصيام خير من الإفطار، وفي ذلك حثٌّ على الصيام، وحضٌّ عليه.

كما أن في قوله "خير" إيجاز قصر؛ وذلك لاشتمالها على كثير من المعاني، وبيان ذلك أن الصيام خير من الإفطار في كل شيء، هكذا وردت في القرآن الكريم مطلقة دون تقييد، أفاد هذا التقييد الإطلاق والعموم، فهو خير في كل شيء ديناً ودنياً، ومن ذا يحصر مصالح الصيام الدنيوية؟ ومن ذا الذي يحصر مصالحه – كذلك – ومنافعه

---

(١) جامع البيان: ١٨٦/٣ .

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٩٤/٢ .

(٣) انظر: معاني القرآن: ١١٢/١، للفراء .

الأخروية؟ ولذا جاء الإيجاز ليشمل هذه كله بأقصر الألفاظ، فتأمل بلاغة القرآن وإعجازه.

كما أن قوله ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ التفات من الغيبة في قوله ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ ﴾ إلى الخطاب في قوله ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ، جاء الالتفات في هذا السياق متوافقاً أتم التوافق مع مضمون الآية ومحتواها، وكأن المقام قد حتم هذا الالتفات وأوجبه، وذلك أن في الخطاب مزيداً من الاهتمام، والعناية بالمخاطبين، كما أنه مظهرٌ من مظاهر الحفاوة، والرعاية بهم، فرفعةً لشأنهم، وإعلاءً من قدرهم توجه – سبحانه – بالخطاب إليهم، كما أن فيه تهويناً عليهم لأمر الصيام ومشاقه، فقد أنستهم لذة المناجاة هذه المشاق، وهوَّنتها عليهم.[1]

كما أن الانتقال من أسلوب إلى آخر إشارة إلى أن هاهنا معنى عظيماً يستحق لفت الأنظار إليه، ويستحق – كذلك – تنشيط العقول، وتحريك الأفهام؛ للوقوف عنده واستيعابه، ولذا نرى أن المعنى الذي تمَّ فيه الالتفات من الأهمية بمكان، وهو تفضيل الصيام على الإطعام، والحث على الصيام، بل إن هذا الأمر مدار هذه الآيات وموضوعها، ومن هنا جاء الالتفات في هذا الموضع للإشارة إليها.

وقوله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إتمام للحث على الصيام، والترغيب فيه، يتجلى ذلك من خلال حذف متعلق الفعل "تعلمون"، فقد حُذف لوضوحه، ودلالة السياق عليه[2]، والتقدير: إن كنتم تعلمون فضيلة الصيام وفوائده التي بسببها فُضِّل الصيام على الإفطار، ومن ثم كان الحث عليه [3]، كما أن هذا الحذف هو الأبلغ والمتوافق مع فضائل الصيام وفوائده التي لا حصر لها.

---

(١) انظر: روح المعاني: ٢/٥٩ .

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم: ١/١١٩ .

(٣) انظر: محاسن التأويل: ٣/٤٢٣ .

وفي مجيء أداة الشرط "إنْ" دون "إذا" دلالة في هذا المقام، فهاتان الأداتان وإن كانتا من أدوات الشرط إلا أن لكل واحدة دلالة تدل عليها، ومقاماً تأتي فيه دون الأخرى، فتأتي "إن" في الأمور المشكوك في وقوعها، المحتمل حدوثها، بخلاف "إذا" فتأتي في الأمور المتيقن وقوعها، المجزوم حدوثها، وقد جاءت أداة الشرط "إنْ" هنا إشارة إلى أن علم المخاطبين بالصيام، وتفضيله على الإطعام غير متحقق لدى كل المخاطبين، كما أن حكمته وفائدته قد تكون خافية لدى بعضهم.[1]

ثم بين – سبحانه – ما اختُص به شهر رمضان من بين سائر الشهور بنزول القرآن الكريم في قوله – تعالى – ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

المتأمل في هذه الآية يجد أن النظم القرآني آثر هنا كلمة "شهر"، وأما في مقام التكليف بالصيام، فقد تمَّ التعبير عن الشهر بقوله ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾، والسرُّ في هذه المغايرة: أن المقام هنا مقام تشريف، وبيان ما اختُص به شهر رمضان من بين سائر الشهور، فناسب أن يُعبر عنه بقوله ﴿شَهْرُ ﴾ دلالة على التمام، وإكمال العدة، كما أن ذلك مظهر من مظاهر الرحمة، والتدرج بالعبادة، وفي تكليفهم بالصيام، فالصيام الذي أُمروا به أيام معدودات، كما أن هذه الأيام شهر واحد من بين اثني عشر شهراً، وليست أشهراً يشق على الناس صيامها وقيامها.

وأما ما خُصَّ به شهر رمضان من النفحات والإشراقات فهو شهر كامل ينعم المسلمون بنفحاته وإشراقاته، وهذا من فضل الله – تعالى ورحمته – بنا "أن كانت أيام

(١) انظر: التحرير والتنوير: ١٦٨/٢ .

الصيام شهراً فلعلَّ النفوس العطاش أن ترتوي من عذبه، ولعل الأرواح أن تتضلع من نميره، ولعل النفوس التي شفها الوجد، والأفئدة التي تهوي إليه وتهفو أن ترتد بانقضاء شهر الصيام – وهيهات – وقد اطفأت غلة، وشفت علة".[1]

ثم ذكر – سبحانه – خاصية من خصائص شهر رمضان، وفضيلة من فضائله، وهو: نزول القرآن الكريم فيه، في قوله ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾، وقد ذكر الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) دلالات اسم الموصول وصلته في هذا المقام، يقول: " وظاهر ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ أن المخاطبين يعلمون أن نزول القرآن وقع في شهر رمضان؛ لأن الغالب في صلة الموصول أن يكون السامع عالما باختصاصها بمن أجزى عليه الموصول، ولأن مثل هذا الحدث الديني من شأنه ألا يخفى عليهم، فيكون الكلام تذكيراً بهذا الفضل العظيم، ويجوز أيضا أن يكون إعلاما بهذا الفضل، وأجرى الكلام على طريقة الوصف بالموصول للتنبيه على أن الموصوف مختص بمضمون هذه الصلة بحيث تُجعل طريقاً لمعرفته ".[2]

وقد جاء التعريف بطريق الموصول في آيات الصيام في قوله ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، والإشارة – كذلك – إلى الارتباط الوثيق بين القرآن الكريم والصيام، فقد تمَّ نزول القرآن في شهر رمضان، وقد جاءت السنة النبوية مبينة هذا الارتباط، ومشيرة إليه، أكتفي في الدلالة على ذلك بحديث واحد؛ ففيه الدلالة الواضحة، والإشارة البينة إلى ما بين القرآن وشهر رمضان من الارتباط، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصوم: أي رب منعته الطعام والشهوات بالنهار، فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل،

(١) تأملات في سورة البقرة: ٢/١٠٢٤.

(٢) التحرير والتنوير: ٢/١٧١.

فشفعني فيه، قال: فيشفعان)[1].

وللفظة ﴿ شَهْرُ ﴾ وجوه إعرابية عدة، يقول الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في ذلك " ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ ارتفاعه على أنه مبتدأ خبره ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾، أو أنه بدل من الصيام في قوله ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ﴾، أو أنه مفعول ﴿ وَأَن تَصُومُوا ﴾ "[2]، وقد تلقّف البيضاوي(ت٦٨٥ هـ)، عبارة الزمخشري السابقة، فزادها بسطة في الشرح والإيضاح، يقول: " ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: وذلك شهر رمضان، أو بدل من الصيام على حذف المضاف، أي كُتب عليكم الصيام، صيام شهر رمضان، وقرئ بالنصب على إضمار أن تصوموا، أو على أنه مفعول وأن تصوموا، وفيه ضعف، أوبدل من أيام معلومات "[3]، والأولى في إعرابها أن تكون لفظة ﴿ شَهْرُ ﴾ مبتدأ، وخبرها قوله ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾؛ وهذا القول هو الأقرب لمعنى الآية، وبه تسلم الآية من التكلف، ومن الحذف والتقدير، وقد رجح هذا القول كثير من المفسرين، ومن ذلك الشهاب (ت١٠٦٩ هـ)، ، يقول – بعد أن استعرض هذه الأقوال- : " والأول أولى؛ لسلامته من التكلف "[4]، كما رجحه القونوي (ت١١٩٥ هـ)، يقول – في شرحه لكلام البيضاوي السابق - : " قوله (مبتدأ خبره ما بعده) وهو ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾، فحينئذ يكون بياناً؛ لأناقته وشراقته؛ حيث فيه ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، وصلاح الدارين، وفريضة صيامه لا يفهم منه، بل من قوله ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ ، قدَّمه لِما فيه بيان حسن فريضة الصوم فيه بالمدح أولا بنزول

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ١٧٤/٢ .

(٢) الكشاف: ٣٣٦: ١ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢١٧/١ .

(٤) عناية القاضي وكفاية الراضي: ٢٧٧/٢ .

القرآن فيه، على أنه محط الفائدة، والمقصود بالذات، ولو جُعل وصفا لم يحصل المدح مثل المدح بالخيرية، فُعلم فيه أن جعل قوله ﴿فَمَن شَهِدَ﴾ خبراً له بعيد مع تكلف، فإنه ما فيه من فوت المبالغة في المدح يستلزم كون الفاء زائدة في الخبر، والرابطة بالاسم الظاهر لا الضمير".[1]

وفي قوله ﴿أُنزِلَ﴾ كثير من الإشارات البلاغية المراد تقريرها في هذا المقام؛ لارتباطها بآيات الصيام، فقد أسند النزول إلى مالم يُسمَّ فاعله، وفي ذلك إشارة إلى منزِّل القرآن الكريم، وهو الله – سبحانه وتعالى – ولذا لم يُذكر فاعل النزول؛ لكونه معلوماً، إذ لا أحد يقدر هذا الأمر ولا يستطيعه سواه كما أنه - سبحانه - مختص بهذا النزول، فالمقام هنا حديث عن القرآن الكريم، وعن نزوله في شهر رمضان، وليس مقاماً لبيان مَنْ أنزله، ولذا فقد تمَّ تسليط الضوء على نزوله في شهر رمضان، والله أعلم بمراده.

وفي لفظة ﴿أُنزِلَ﴾ دلالة على نزول القرآن الكريم من السماء، وفي هذا ردٌّ على كثير من افتراءات المشركين، ودحض لحججهم وشبهاتهم، فقد زعموا أن القرآن إفك مفترى، كما زعموا أن الرسول قد اختلقه من عند نفسه، وأنه أساطير الأولين، وفي كونه منزلاً من رب العالمين في ذلك رد على كل تلك الافتراءات والاتهمامات.

وقد آثر النظم القرآني الحديث هنا عن نزول القرآن بلفظ "الإنزال" دون "التنزيل"، وفي ذلك إشارة إلى المراد بنزول القرآن في شهر رمضان، إذ المعنى: "أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في ليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل – عليه السلام – على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوماً في ثلاث وعشرين سنة".[2]

---

(١) حاشية القونوي: ٢/٢٣.

(٢) انظر: معالم التنزيل: ١/١٥١.

وللبلاغيين وقفة مع قوله ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ بينوا فيها ما تضمنته من دلالات وأسرار بلاغية، يقول الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): " ومعنى ﴿ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ ابتدئ فيه إنزاله، وكان ذلك في ليلة القدر، وقيل أُنزل جملة إلى سماء الدنيا، ثم نزل إلى الأرض نجوما، وقيل: أُنزل في شأنه القرآن "[1]، وقد أبان القونوي (ت١١٩٥ هـ)، في حاشيته مراد الزمخشري، وزاده بسطة وبياناً، وذكر ما تضمنه قوله ﴿ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ من الأسرار البلاغية، يقول: " (ابتدئ فيه إنزاله، وكان ذلك في ليلة القدر) لما كان ظاهر النظم أن القرآن بأسره وتمامه أُنزل في رمضان، وليس كذلك، وجهه بأوجه ثلاثة: الأول: هو أن المراد ابتدأ فيه إنزاله، وذلك ليلة القدر، لقوله – تعالى – ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ ففي " أُنزل" مجاز حيث ذكر الإنزال وأُريد به ابتداؤه، إذ ابتداؤه سبب لإنزاله جميعاً، ولك أن تقول: أن القرآن يطلق على البعض، كما يطلق على الكل، فلو أُريد بالقرآن هنا بعضه لا يحتاج إلى التمحل المذكور، والظرفية مجاز في رمضان وليلة القدر؛ لأن الظرف حقيقة الجزء الذي هو من ليلة القدر، لكن هذا في الاستعمال شايع في الظرف زماناً، كان ذلك أو مكاناً، يقال: فلان سكن في بلدة كذا، في محلة كذا، ومكانه حقيقة هو الذي يشغله، وفلان جاء في يوم كذا، مع أنه جاء في جزء منه "[2].

وقد تقدم الجار والمجرور "فيه" على لفظة " القرآن" في قوله ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ وقد اقتضى المقام هذا التقديم؛ وذلك أن الحديث هنا عن شهر رمضان، وبيان ما اختص فيه من الخصائص والمزايا التي تميزه عن سائر الشهور، وقد ناسب ذلك أن يُقدم ذكره؛ إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة على الاهتمام به، والحفاوة البالغة بالشهر الكريم الذي حوى هذه الخصائص، واشتمل على كل هذه المزايا.

---

(١) الكشاف: ١/٣٣٦.

(٢) حاشية القونوي: ٢٥: ٣.

ولشديد الارتباط بين القرآن والصيام بيّن – سبحانه – مزايا القرآن الكريم وجليل نعوته في ثنايا آيات الصيام، في قوله ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ ولفظة "هدى" في موضع نصب على الحال من القرآن الكريم، والتقدير: هادياً، و"بينات" معطوفة عليها، وكلا هاتين اللفظتين حال لازم من القرآن الكريم، ولذا فهذه الهداية، وتلك البينات صفات لا تنفك عن القرآن الكريم، فهذه صفته، وستظل ملازمة له، فهو كتاب هداية وإرشاد، كما أنه كتاب واضح الدلالة، بيّن المعالم.(١)

ولا شك أن لفظة "هدى" أبلغ في الدلالة على الهداية، فقد جُعل القرآن هو الهدى؛ مبالغة في تحقيق الهداية، وتأكيد هذه الصفة (٢)، وفي تنكيرها تعظيم لأمر هذه الهداية، وتفخيم لشأنها، وحسبك بهداية القرآن الكريم إرشاداً و بياناً.

ولعظم هذه الهداية، وعظيم نفعها ذكر – سبحانه – أن القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، فهو هدى لكل الناس، وهذا الذي يتلاءم مع هذه الهداية وعظمها، وهكذا جاءت الآية، فهذا هو حال القرآن أنه هدى للناس جميعاً دون تحديد أو تقييد، فهو " هدى للناس كل الناس المؤمن منهم وغير المؤمن، فإنه يصلح في حقه ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (٣)، وأما غير المؤمن فإنه يتبين في القرآن الكريم النور المبين، والصراط المستقيم " (٤)، فيكون ذلك هدى له، وسبباً للإقبال عليه، والإيمان به، ولذا جاءت مطلقة دون تقييد ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، بيد أن المؤمنين وحدهم هم الذين ينتفعون بهذه الهداية، يدل على ذلك قوله – تعالى – عن القرآن في موضع آخر ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٥)،

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٤٧/٢ .

(٢) انظر: حاشية زادة على تفسير البيضاوي: ٤٩٣/١ .

(٣) محمد: ١٧ .

(٤) تأملات في سورة البقرة: ١٠٢٧/٢ .

(٥) البقرة: ٢ .

فالمتقون وحدهم الذين اهتدوا بالقرآن، وانتفعوا بهدايته فزادهم هدى وتقى، وأما غيرهم فكان عليهم شقاء وحرماناً كما قال – تعالى – ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾.(١)

ولعظم هداية القرآن، والتأكيد عليها أعاد – سبحانه – ذكرها في قوله ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ ، وقد ذكر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) موقع هذه الآية وبلاغتها، يقول: " فإن قلت: ما معنى قوله ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ بعد قوله ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؟ قلت: ذكر أولاً أنه هدى، ثم ذكر ثانياً أنه بينات من جملة ما هدى الله به، وفرق بين الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال " (٢) ، ولذا فإن قوله ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ من عطف الخاص على العام، وقد أشار إلى هذا المعنى وأكده أبو حيان الأندلسي(ت ٧٤٥هـ)، يقول: " وعطف قوله ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ من عطف الخاص على العام؛ لأن الهدى منه خفي، ومنه جلي، فنصَّ بـ "البينات" على الجلي من الهدى؛ لأن القرآن مشتمل على المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، فذكر عليه أشرف أنواعه، وهو الذي يتبين الحلال والحرام والمواعظة". (٣)

و"بينات" حال – أيضاً – من القرآن الكريم، وهي حال لازمة، فكون القرآن آيات واضحات وصف ثابت له (٤)، فهذا حال القرآن، وذا نعته الثابت له، فهو " دلائل وحجج بينة، واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها، دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، ومفرقاً بين الحق والباطل، والحلال والحرام ". (٥)

---

(١) الإسراء: ٨٢ .

(٢) الكشاف: ٣٣٦/١ .

(٣) البحر المحيط: ٤٧/٢ .

(٤) انظر: المصدر السابق: ٤٧/٢ .

(٥) تفسير القرآن العظيم: ٢٣٣/١ .

وكأن في قوله "بينات" تحديداً للقرآن الكريم، وبياناً له؛ وذلك أن الهداية تكون بالأشياء الخفية، وبالجلية أيضاً، بخلاف البينات فإنها بالأمور الجلية فقط.

وقد تضمن قوله ﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ نوعاً خاصاً من الهداية مغايراً لمعنى الهداية التي تقدم ذكرها، ولذا فإن فإفراد الخاص مرة أخرى بعطفه على العام دلالة على شرفه، وتمييزه، وعلو قدره، ومن هنا جاء إفراده بالذكر؛ إشارة إلى أن القرآن يشمل المحكم والمتشابه، بخلاف البينات والفرقان فإنها تختص بالمحكم منه[1]؛ لأنها دلائل واضحة، وعلامات فارقة بين الحق والباطل، والرشد والغي، ومن هنا جاء عطف الخاص على العام في هذا السياق؛ ليدل على هذا المعنى، ويشير إليه.

وقد نتج عن هذا العطف تناغم صوتي، وإيقاع يملأ الأذن روعة وجرساً من خلال هذه الألفاظ: "رمضان، القرآن، الفرقان"، ولمجيء هذا التناغم في بداية الآية أثر على النفوس يحملها على الإصغاء، ويدفعها إلى الإذعان والقبول لهذه الأحكام، والقيام بها طوعاً واختياراً.

وقد ذكر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) إعراب قوله ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ﴾ وبيانها، يقول: "نُصب على الحال، أي أُنزل هو هداية للناس إلى الحق، وهو آيات واضحات مكشوفات مما يهدى إلى الحق، ويفرق بين الحق والباطل"[2]، جاءت لفظة ﴿هُدًى﴾ لإفادة تفخيم هذه الهداية وتعظيمها.[3]

أورد القونوي (ت ١١٩٥ هـ) في معرض حديثه عن هذه الآية كلام البيضاوي؛ لرد دعوى التكرار في الآية، يقول: "وقوله (مما يهدي إلى الحق، ويفرق بينه وبين الباطل بما فيه من الأحكام) أراد به دفع توهم التكرار، بأن جعل الهدى الأول؛ لكونه نكرة هداية

(١) انظر: فتح القدير: ١/١٨٢.

(٢) الكشاف: ١/٣٣٦.

(٣) حاشية القونوي: ٢/٢٦.

حاصلة بإعجازه، وبحمل الثاني على الهدى الحاصل باشتماله على الحق، والتفريق بينه وبين الباطل؛ لِما فيه من الحِكم".[1]

كما بسط المسألة وعرضها ابن التمجيد (ت٨٨٠ هـ) في دفع توهم التكرار في هذه الآية، يقول: " هو بحسب ظاهره تكرار، فما وجه المغايرة بينهما؟ قلت: ذكر أولاً أنه هدى، ثم ذكر ثانياً أنه بينات من جملة ما هدى به الله، وفرق بين الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادفة الفارقة بين الهدى والضلال، فحاصل الجواب: أنه ذكر أولاً أنه هدى، والهدى على قسمين: ما يكون بيناً جلياً، وما لايكون كذلك، والأول أفضل القسمين، فذكر الجنس أولا، ثم أردفه بأشرف نوعيه، بل بالغ فيه فكأنه قيل: إنه هدى، بل هو من الهدى، بل بينات من الهدى، ولا شك أنه في غاية المبالغة؛ لأنه في المرتبة الثالثة، فالعطف فـ﴿ وَبَيِّنَٰتٍ ﴾ من باب عطف التشريف، فإن ذكره ثانياً مع دخوله في المعطوف عليه إنما هو للتنويه والتشريف، والمصنف – رحمه الله – فرق بينهما بوجه آخر، وهو: أن الأول على أنه هداية بلفظه وبلاغته البالغة حد الإعجاز، والثاني: على أنه هداية بمعناه إلى طريق الحق، وتنكيره للتعظيم، أي هدى عظيم لا يُكتنه كنهه ".[2]

وفي قوله ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ مجاز المرسل، فقد أُطلق الكل، وأُريد الجزء، فقد أطلق الشهر والمراد: جزء منه[3]، والمعنى: فمن شهد جزءاً من رمضان وهو مقيم قادر فقد وجب عليه الصوم، وله أن يفطر في الأيام التي يكون فيها مسافراً أو مريضاً، تتجلى بلاغة هذا المجاز أن فيه تعظيماً لأمر الصيام، وتفخيماً له، كما أن فيه تأكيداً – كذلك – للإيجاب، وإلزاماً به، فإن ذلك أدعى لتفخيم الشهر وتعظيمه، كما

(١) حاشية القونوي: ٢/٢٦.

(٢) حاشية ابن التمجيد: ٢/٢٦.

(٣) انظر: حاشية الجمل: ١/٢٢٠.

أنه أدعى في إيجاب الصيام لمن كان قادراً مقيماً.

كما تضمن قوله ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ حذفاً لطيفاً، وقد أشار البيضاوي (ت٦٨٥ هـ)، إلى الحذف وتقديره، يقول: " أي: فمن حضر في الشهر ولم يكن مسافراً فليصم فيه، والأصل: فمن شهد فيه فليصم فيه، ولكن وضع المظهر موضع المضمر الأول؛ للتعظيم، ونُصب على الظرف، وحُذف الجار والمجرور، ونُصب المضمر الثاني على الاتساع، وقيل: فمن شهد منكم هلال الشهر فليصمه، على أنه مفعول به، كقولك: شهدت الجمعة أي صلاتها". (١)

وبعد أن أوجب – سبحانه – الصيام ذكر بعد ذلك من استُثني من هذا الحكم في قوله ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ وقد تقدم الحديث عن مثل هذه الآية وبلاغتها في الآية السابقة، بيد أن هناك سراً من تكرارها مرة أخرى؛ وذلك أن قوله ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ نسخ لقوله ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ فقد نُسخ التخيير بين الصيام والإفطار لمن كان قادراً مقيماً، ووجب عليهم الصيام، بيد أن النسخ كان خاصاً بهذا الحكم دون غيره، وأما الرخصة في حق المريض والمسافر فلا زالت قائمة لم تُنسخ، ولذا أُعيد ذكرها هنا بعد الأمر بإيجاب الصيام؛ لئلا يتوهم متوهم أن الرخصة منسوخة كذلك (٢)، ومن هنا يتبين سرُّ إعادتها مع تقدم نظيرها؛ وذلك أن الأحكام الشرعية لا يصح فيها الظنون أو التوهمات، ولذا جاء التكرار قاطعاً هذا الوهم، وطارداً له من الحضور في الأذهان.

إذن فقد جاء التكرار ليدل على أن الرخصة باقية، وذلك مظهر من مظاهر رحمته – سبحانه – بعباده، وصورة من صور تيسيره بهم، وقد تمَّ تأكيد هذه الحقيقة والتصريح

---

(١) أنور التنزيل وأسرار التأويل: ٢١٧/١ .

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ١٤٥/١ .

بها في قوله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ وقد أشار إلى هذا المعنى الطبري (ت ٣١٠هـ) في تفسير هذه الآية، يقول: " يريد الله بكم أيها المؤمنون - بترخيصه لكم في حال مرضكم وسفركم في الإفطار وقضاء عدة من أيام أخر من الأيام التي أفطرتموها بعد إقامتكم وبعد برئكم من مرضكم - التخفيف عليكم، والتسهيل عليكم؛ لعلمه بمشقة ذلك عليكم في هذه الأحوال ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ يقول: ولا يريد بكم الشدة والمشقة عليكم فيكلفكم صوم الشهر في هذه الأحوال مع علمه بشدة ذلك عليكم، وثقل حمله عليكم لو حملكم صومه".[1]

بيد أن قوله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ لا تقف عند هذه الرخصة في الصيام، بل هذه الرخصة جزء من هذا التيسير، ولذا فيكون قوله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ " تعليلاً لجميع ما تقدم من قوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ إلى هنا، فيكون إيماء إلى أن مشروعية الصيام وإن كانت تلوح في صورة المشقة والعسر فإن في طيها من المصالح ما يدل على أن الله أراد بها اليسر، أي تيسير تحصيل رياضة النفس بطريقة سليمة من إرهاق أصحاب بعض الأديان الأخرى".[2]

وقد ظهر التيسير جلياً في مشروعية الصيام في الآيات السابقة كلها، وذلك من خلال ما يأتي:

أولاً: في قوله ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ففيها تطييب لنفوس المخاطبين بها، وتخفيف عليهم؛ وذلك أن الأمر الشاق إذا عمَّ سهل؛ وذلك أن المشقة تتضاعف حين يعلم الإنسان أنه المكلف به وحده دون الناس، وأنه قد خُصَّ بذلك فحينها يَعْظُم حِمْله، ويثقل عليه تَحَمُّله، ولذا فإن في " التشبيه بالسابقين تهويناً على المكلفين بهذه

(١) جامع البيان: ٢١٨/٣.

(٢) التحرير والتنوير: ١٧٥/٢.

العبارة أن يستثقلوا هذا الصوم؛ فإن في الاقتداء بالغير أسوة في المصاعب".[1]

ثانياً: في قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وذلك من خلال بيان الحكمة في إيجاب الصيام، فإذا كان الصوم سبباً لحصول التقوى فإن ذلك مما يهون مشقة الصيام، كيف لا والغاية نبيلة، والمستشرف عزيز، ومن هنا فإن ذكر هذه الغاية والتأكيد عليها تيسير بالمكلفين، بل تحبيب لهم بالصيام، وترغيب فيه.[2]

ثالثاً: في قوله ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ وهذا مظهر من مظاهر التيسير، وجانب من جوانب شفقته – سبحانه – بعباده المؤمنين، ولو كان الصيام كل أيام السنة أو جلها لحصلت المشقة بذلك، ولكنه – سبحانه – بعباده رؤوف رحيم.[3]

رابعاً: في قوله ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وبيان ذلك: أن كان الصيام في الوقت الذي أُنزل فيه القرآن، وفي ذلك إشارة إلى كونه أفضل الشهور، فتعظم فيه العبادة، وتنشط فيه النفس، وتقبل فيه القلوب على ربها بالطاعة والعبادة.[4]

خامساً: في قوله ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فقد أُبيح للمريض والمسافر الفطر، ولم يُلزما بالصيام وهما في هذه الحالة؛ لِما في ذلك من المشقة الظاهرة عليهما، فرُخِّص لهما بالفطر، ولذا فإن كل ما تقدم يدل بجلاء على أنه – سبحانه – يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر، فقد "راعى – سبحانه – في إيجاب الصوم هذه الوجوه من الرحمة، فله الحمد على نعمه كثيراً".[5]

ولكن الأولى أن قوله – تعالى – ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ ليس

---

(١) التحرير والتنوير: ٢/١٥٦.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ٥/٦٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن: ١/١٧٩.

(٤) انظر: التفسير الكبير: ٥/٦٣.

(٥) التفسير الكبير: ٥/٦٣.

مختصاً بالصيام، ولا يقف معنى الآية عند التيسير في فريضة الصوم، بل هو تيسير – كما يذكر القرطبي (ت ٦٧١ هـ) –[١] يشمل جميع أمور الدين، يدل على ذلك قوله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.[٢]

ولذا فقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ من إيجاز القِصَر، فقد حوت بألفاظها القليلة كثيراً من المعاني التي يصعب حصرها، والوقوف عليها، وقد أشار السعدي (ت ١٣٧٦هـ) إلى هذا الإيجاز يقول: " ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله، وإذا حصل بعض العوارض الموجبة لثقله سهله تسهيلاً آخر إما بإسقاطه أو تخفيفه بأنواع التخفيفات ".[٣]

وقد جاء نظم الآية ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ متوافقاً مع هذا الإيجاز، ومبيناً له – كذلك – يتجلى ذلك في قوله ﴿يُرِيدُ﴾ في كلا الموضعين، ففي مجيئها فعلاً مضارعاً دلالة على التجدد والاستمرار.

وقد دل تقديم الجار والمجرور في قوله ﴿بِكُمُ﴾ في كلا الموضعين على أن هذا التيسير مظهر من مظاهر رحمته – سبحانه – بعباده، وشفقته عليهم، كما أنه صورة من صور العناية بهم، والاهتمام بشأنهم، فلذا قُدم ذكرهم، فهم المعنيون بهذا التيسير، فمن أجلهم كان التيسير، ومن أجلهم رُفع الحرج عنهم والعسر.

يؤكد هذا المعنى ويدل عليه – كذلك – حرف الجر (الباء) في كلا الموضعين في قوله ﴿بِكُمُ﴾ من خلال دلالته على الإلصاق[٤]، فكأن اليسر المراد بهم، والعسر المنفي عنهم ملاصق بهم، لا ينفك عنهم في أي حال من الأحوال، ولذا فلينعم المؤمنون بهذا

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢/٢٠١.

(٢) الحج: ٧٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ١/١٤٥.

(٤) انظر: إملاء ما منَّ به الرحمن: ١/٨٢.

التيسير فسيظل مصاحباً لهم في كل تشريع، وهذا من رحمته سبحانه بعباده، وعنايته بأمرهم.

وقد تضمن قوله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ محسناً بديعياً، وهي المقابلة، وتتجلى بلاغة هذا المحسن أنه يقوم على تداعي المعاني، فإن المعاني - من خلال ذكر الألفاظ وأضدادها - تنثال على الذهن انثيالاً؛ وذلك أن الضد أقرب حضوراً بالبال حين يُذكر ضده، فإذا ذُكرت اللفظة وضدها انكشفت أجزاء القضية كلها، وبرزت أطرافها بروزاً جلياً حين جُمعت الأضداد في مقام واحد، وبذلك يتم الوضوح والجلاء التام للمعنى المراد بيانه، والحديث عنه، ومن ثَم تظهر الحِكَم والأسرار من وراء الجمع بين الضدين في مقام واحد، ولذا فتتجلى بلاغة المقابلة في إبرازها للمعنى كاملاً، والإحاطة به من جميع جوانبه [1]، وقد ظهر ذلك جلياً في هذه الآية، فقد استوعبت المقابلة هذا الأمر من جميع جوانبها، وأحاطت به إحاطة السوار بالمعصم، كما أنه مظهر من مظاهر التأكيد، فقد تضمن هذا المحسن إثبات اليسر، ونفي العسر عن هذا الأمة، وكل معنى من هذه المعاني مراد بيانه، ولذا نُص على كل واحد منها بالذكر، وذلك أن قوله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ متضمن نفي العسر، كما أن قوله ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ متضمن – كذلك – نفي إثبات إرادة اليسر، ومع ذلك نُصَّ على الأمرين معاً؛ إشارة إلى عِظم هذا المعنى وأهميته من خلال ذكر الأمرين معاً، والتصريح بذكر كل من الإثبات والنفي جميعاً، مع أن أحدهما يغنى عن الآخر في الدلالة عليه، إشارة إلى أهمية معنى كل واحد منهما، وأنه مراد لذاته، ولذا ذُكرا معا وبهذه الطريقة من خلال هذا الأسلوب.

ثم ختم – سبحانه – الآية بقوله ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ

(١) انظر: الصبغ البديعي: ٤٧١.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يبين – سبحانه – في هذه الآية أن الغرض من القضاء هو إكمال العدة، وهو تمام صوم رمضان، والمراد بالعدة: أي عدد الأيام التي تم الإفطار فيها من شهر رمضان لمن كان مريضاً أو مسافراً، وفي التعبير عنها بالعدة إشارة إلى كون رمضان أياماً معدودات، وقد تمَّ الإشارة إلى ذلك في بداية هذه الآيات في كون الصيام الذي فُرض علينا أياماً معدودات، وفي ذلك امتداد لذلك التيسير، وجانب من جوانب لطفه – سبحانه – بعباده، ورحمته بهم.[1]

كما أن الأمر بإكمال العدة مشعر – أيضاً – بوجوب القضاء، وأنه أمر محتم لا خيرة للعبد فيه، وأن المراد بالصيام هو الشهر كله، وليس بعضاً منه، أو جل أيام الشهر

ولذا يصح أن يكون قوله ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ احتراساً، وقد أشار السعدي (ت١٣٧٦هـ) إلى هذا الأمر، فذكر أن الغرض من قوله ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ هو: "لئلا يُتوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، دُفع هذا التوهم بالأمر بتكميل عدته"[2]، والاحتراس في كلامه ظاهر جلي.

كما أن قوله – تعالى – ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ من اللف والنشر، وهو من المحسنات البديعية، وهو – كما عرَّفه الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) – : "ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين؛ ثقة بأن السامع يرده إليه"[3]، إلا أن اللف والنشر في قوله ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ خفي لا يكاد يبين، وقد خفي على كثير من المفسرين، ولم يُنبه إليه إلا القلة منهم من الحذاق

(١) انظر: تفسير القرآن الحكيم: ١٦٥/٢.

(٢) تفسير الكريم الرحمن: ١٤٥/١.

(٣) الإيضاح: ٥٠٣.

المدققين، يدل على ذلك قول الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في تفسير هذه الآية: " وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدي تبينه إلا النقاب المحدث من علماء البيان "[١]، وصدق في ذلك، ويكاد يكون الزمخشري أول من أشار إلى هذا اللف الذي جاء في هذه الآية، وقد أحسن الزمخشري في التنقيب عنه، والإشارة إليه، ولذا فهو منظوم في سلك حسناته البيانية، وما أكثرها!

ووجه غموض هذا النوع من اللف: طبيعته، وقد أشار سعد الدين (ت ٧٩١هـ) إلى هذا النوع، يقول: " وهنا نوع آخر من اللف لطيف المسلك، وهو أن يُذكر متعدد على التفصيل، ثم يُذكر ما لكل، ويُؤتى بعده بذكر ذلك المتعدد على الإجمال ملفوظاً أو مقدراً، فيقع النشر بين لفين، أحدهما مفصل، والآخر مجمل، وهذا معنى لطف مسلكه "[٢]، ومن اللطائف في ذلك أن سعد الدين ذكر كلام الزمخشري بتمامه في بيانه لمعنى اللف والنشر في الآية؛ إشارة إلى موافقته التامة له، ومتابعته إياه في ذلك، يقول الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في بيانه لهذا اللف والنشر: " الفعل المعلل محذوف، مدلول عليه بما سبق تقديره ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ شرع ذلك يعني جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر، وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه، ومن الترخيص في إباحة الفطر فقوله ﴿وَلِتُكْمِلُوا﴾ علة الأمر بمراعاة العدة ﴿وَلِتُكَبِّرُوا﴾ علة ما علم من كيفية القضاء، والخروج على عهدة الفطر، و﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علة الترخيص والتيسير، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدي تبينه إلا النقاب المحدث من علماء البيان".[٣]

---

(١) الكشاف: ١/٣٣٧.

(٢) المطول في شرح تلخيص المفتاح: ٤٢٧.

(٣) الكشاف: ١/٣٣٧.

ولعل سبب غموض هذا النوع من اللف هو: أن ما يناسب ما تقدم ذكره ليس ملفوظاً أو مذكوراً، بل مقدر، وفي ذلك خفاء له، تسبب في غموضه ودقته، بخلاف لو كان مذكوراً.

وقد أفاض البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ)، في الحديث عن هذا اللف، مبيناً المراد به وتقديره، يقول: " قوله ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ أي يريد أن ييسر عليكم، ولا يعسر عليكم، فلذلك أباح الفطر في السفر والمرض، ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علل لفعل محذوف، دل عليه ما سبق، أي وشرع جملة ما ذكر من أمر الشاهد لصوم رمضان المرخص بالقضاء، ومراعاة عدة ما أفطر فيه، والترخيص؛ لتكملوا العدة إلى آخرها على سبيل اللف، فإن قوله ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ﴾ علة الأمر بمراعاة العدة، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ على الأمر بالقضاء، وبيان كيفيته، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على الترخيص والتيسير".[1]

وقد قرر هذا المعنى وأكده القونوي (ت ١١٩٥ هـ)، يقول: " والأولى أن قوله ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ علة للأمر بالصيام، ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ﴾ علة للأمر بمراعاة العدد كما ذكر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علة لما ذكره، فالنشر على غير ترتيب اللف".[2]

وفي ختم الآية بقوله ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كثير من الأسرار واللطائف التي يحسن بيانها وتقريرها في هذا المقام؛ لشدة علوقها بأحكام الصيام المتقدمة كلها، ولذا فإن الإشارة إلى الشكر في هذا المقام دلالة على تقدم نِعَمٌ جَمْى على العباد من ربهم، وعليهم أن يراعوا ذلك، وأن يشكروه على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وإن فريضة الصيام كلها - بما فيها من أحكام وتشريعات - من أكبر النعم التي تستوجب الشكر

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢١٨/١ .

(٢) حاشية القونوي: ٢٨/٢ .

وتختمه؛ لِما فيه من حِكَم ومصالح، ومنافع للعباد، وليس هذا الشكر مقصوراً على تيسيره – سبحانه – بعباده، وتسهيله عليهم بأمر الصيام، فذاك يستحق الشكر – ولا شك – بيد أن فريضة الصيام كلها، وفرضها علينا منحة كبرى تستحق الشكر، ولذا خُتمت الآية بقوله ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه.

كما أن قوله ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ من عطف العام على الخاص – كما يذكر ذلك الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ)- [(١)] وهو طريق من طرق الإطناب؛ ذلك أن الشكر أعم من التكبير، فهو متضمن له ولغيره، وذلك أن التكبير من شكر الله، ولكن الشكر أعم من التكبير؛ لأنه " يكون بالأقوال التي فيها تعظيم الله، ويكون بفعل القرب من الصدقات في أيام الصيام، وفي أيام الفطر، ومن مظاهر الشكر لبس أحلى الثياب يوم الفطر "[(٢)].

وقد حُذف متعلق الشكر في هذا المقام؛ وذلك بغية الإطلاق والعموم؛ لكون آلاء الله ونعمه لا تُعد ولا تحصى ولذا فنحن مطالبون بشكره – سبحانه – على هذه النعم كلها، ولو ذُكر متعلق الشكر لانحصر الأمر بالشكر في ذلك المذكور، وهو ولا شك يتنافى مع تلك النعم وعددها ومقدارها، بيد أن اللائق بها أن نشكره – سبحانه – على آلائه كلها، ومن عدادها فريضة الصيام بما فيه من تيسير وتسهيل على العباد، والله أعلم بمراده.

وقد ذكر بعض المفسرين والشراح تقديراً لهذا المحذوف، فممن وقف مع هذا الحذف وتقديره، البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ)، في تفسيره، يقول: " ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ علة الترخيص والتيسير، أو لأفعال كل لفعله، أو معطوفة على علة مقدرة، مثل ليسهل

---

(١) انظر: التحرير و التنوير: ٢/١٧٧

(٢) المصدر السابق: ٢/١٧٧.

عليكم، أو لتعلموا ما تعلمون ولتكملوا العدة، ويجوز أن يعطف على اليسر، أي ويريد بكم لتكملوا". (١)

وللقونوي (ت ١١٩٥ هـ)، وقفة كذلك مع قوله ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ بيِّن ما تضمنه من بلاغة، وما تضمنه من حذف، يقول – في شرحه لقول البيضاوي السابق (﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ علة الترخيص والتيسير): " هذا بناء على أن "لعل" بمعنى "كي" على الاستعارة التمثيلية، وتغيير الأسلوب؛ للتنبيه على أن الشكر على ما أنعم الله عليهم لا طاقة للعبد على أدائه، فإن الشكر والحمد من آلاء الله – تعالى – محتاج إلى حمد أيضاً، فغاية وسعه ترجي أدائه، فإن "لعل" ولم تكن بمعنى الترجي هنا لكن باعتبار أصل معناه، ولرعاية الفواصل". (٢)

وقد ذكر ابن التمجيد(ت٨٨٠ هـ)، تقديراً آخر للمحذوف، يقول – في شرحه لبيان مراد البيضاوي في قوله (ويجوز أن يعطف على اليسر) " والمعنى: يريد الله بكم اليسر، وإكمالكم العدة، وتكبيركم الله على ما هداكم، وشكركم لنعمة الهداية إلى طريق الحق الموصل إلى سعادة النشأتين". (٣)

والأولى – في نظري – القول الأول، وهو أن الحذف في الآية لإرادة الإطلاق والعموم، وما ذُكر من تقديرات فهي بعض ما تضمنه الحذف، وليس كلها، والأولى أن نطلقها كما أطلقتها الآية، فهو الأولى والأسلم، ونكون بمنأى عن التكلف في التقديرات.

وقبل أن يمضي القرآن في حديثه عن بقية أحكام الصيام المهمة، وقبل أن يفصل في تلك

---

(١) أنور التنزيل وأسرار التأويل: ٢/٢٨١.

(٢) حاشية القونوي: ٢/٢٨.

(٣) حاشية ابن التمجيد: ٢/٣٠.

الأحكام ويبينها تأتي الوقفة مع الدعاء، والحث عليه، والترغيب فيه في قوله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ في مجيء هذه الآية التي تحث المسلمين على الدعاء وترغب فيه بين آيات الصيام سرٌّ انطوى تحتها، ولطائف دفعت كثيراً من المفسرين إلى النظر والتأمل في مناسبة هذه الآية ووقوعها بين آيات الصيام، فقد أشاروا إلى هذا الأمر، وقد قادهم نظرهم الثاقب، وتأملهم الدائم إلى كثير من الأسرار والحِكَم، يقول: د. حسن محمد باجودة عن هذا الآية: " في أعماق حديث الآيات الكريمات عن الصيام تجيء الآية الكريمة التي تحث المسلمين لله رب العالمين على الإقبال على الله – تعالى – بفعل الطاعات، واجتناب المعصيات، وبدعائه – عز وجل – فإنه تعالى قريب من عباده، مجيب دعوة الداعي إذا دعاه، إن هذا الانعطاف في الحديث ثم العودة إلى الحديث عن الصيام قمين بالتأمل والتدبر "[1].

وقد حظي هذا الأمر بالتأمل والتدبر من المتشغلين بكتاب الله، فقد دققوا النظر، وأمعنوا فيه، وقدحوا زناد فكرهم، فقادهم نظرهم الثاقب، وتأملهم الدائم إلى كثير من الأسرار واللطائف، ومما ذُكر في ذلك، أن هذه الآية من متممات الآيات التي سبقتها، وأنها مكينة في مكانها ذات صلة وثيقة بما تقدمها، وبيان ذلك: أنه – سبحانه – حث المؤمنين في الآية التي قبلها على تكبيره، وعلى شكره على ما أنعم به عليهم، وقيضهم لهم، ويسره عليهم من تمام الصيام، فذكر في هذه الآية أن الذي يكبرونه ويشكرونه قريب منهم، مجيب لهم إذا دعوه، ولذا أمرهم بدعائه والاستجابة له، ثم شرع بعد ذلك ما بقي من أحكام الصيام.[2]

(١) تأملات في سورة البقرة: ١٠٣٥/٢ .

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤٣١/٣ .

وثمة سرٌّ آخر في مناسبة الآية أشار إليه ابن كثير (ت٧٧٤هـ) في تفسيره، يقول: " وفي ذكره – تعالى – هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام إشارة إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر، كما روى أبو داود الطيالسي في مسنده، عن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة، فكان عبدالله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعاء)". (١)

ولذا فالآية مكينة في مقامها، وثيقة الصلة بما تقدمها، كما أن فيها تأكيداً لما سبقها، وقد أشار البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ)، إلى هذا التأكيد، يقول: " واعلم أنه – تعالى – لما أمرهم بصوم الشهر، ومراعاة العدة، وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر، عقبه بهذه الآية الدالة على أنه – تعالى – خبير بأحوالهم، سميع لأقوالهم، مجيب لدعائهم، مجازيهم على أعمالهم تأكيداً له، وحثاً عليه، ثم بيّن أحكام الصوم فقال ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ...﴾". (٢)

بيد أن العطف الذي استُفتحتْ به الآية قد يعارض القول بأن الآية من قبيل التأكيد؛ لأن التأكيد يقتضي ترك العطف، وقد وُفق الشهاب (ت١٠٦٩ هـ)، في حاشيته في التوفيق بين التأكيد والعطف، يقول: " ليس هذا التأكيد في الكلام صريحا منطوقاً أو مفهوما، وإنما هو بطريق الإيماء والتلويح، ومثله يحسن فيه العطف إشارة إلى أنه مقصود بالذكر لا بالتبعية، فلا يرد عليه أن التأكيد يقتضي ترك العطف حتى يحتاج إلى عطفه على مقدر، وهو إذا لم يسألوني فإني غني عنهم، وإذا سألك ...إلخ". (٣)

كما أن الآية من قبيل الاعتراض، ذكر هذا الأمر وأشار إليه ابن التمجيد (ت٨٨٠ هـ)،

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/٢٣٤.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢/٢١٨.

(٣) عناية القاضي وكفاية الراضي: ٢/٢٨٠.

في شرحه لكلام البيضاوي المتقدم، يقول: " وإن قوله (واعلم أنه – تعالى –...إلخ يريد به أن هذا الكلام الواقع بين أثناء أحكام الصوم وهو قوله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ليس بأجنبي في البين، بل له اتصال معنوي بما قبله، وأنه اعتراض جيء به للدلالة على أنه – تعالى – خبير بأحوال المأمورين بالصوم وأعمالهم، سميع لأقوالهم، مجاز على أفعالهم وأقوالهم؛ تأكيداً للأمر بالصيام، ومراعاة العدة، والحث على القيام بالوظائف المتعلقة بأعمال الصيام من إكمال العدة، والتكبير بالحمد على هدايتهم إلى طريق الإتيان بموجب الأمر، والشكر له – تعالى - على نعمة الاهتداء إليه، وحثاً عليهم، أي على صوم الشهر ومراعاة العدة، والقيام بالوظائف المذكورة ".[1]

بيد أن السرَّ في مجيء آية الدعاء بين آيات الصيام لا تقف عند حد، ولا تنتهي إلى غاية، فسيظل الأمر مفتوحاً للمتأملين، ويبقى الأمر من قبل ومن بعد فتحه – سبحانه – وفيضه يمنُّ به على من يشاء من عباده، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد ذكر الرازي (ت ٦٠٦هـ) في تفسيره كثيراً من التعليلات في مناسبة هذه الآية، والحكمة من مجيئها بين آيات الصيام، ومن الوجوه التي ذكرها: " أن الله – سبحانه – أمر بالتكبير أولاً ثم رغب في الدعاء ثانياً؛ تنبيهاً على أن الدعاء لا بد وأن يكون مسبوقاً بالثناء الجميل، ألا ترى أن الخليل عليه السلام لما أراد الدعاء قدم عليه الثناء فقال – أولاً-: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ وكل هذا ثناء منه على الله – تعالى – ثم شرع بعده في الدعاء فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[2] فكذا هاهنا أمر

(١) حاشية ابن التمجيد: ٢/٢٣.

(٢) الشعراء: ٨٧ - ٨٣.

بالتكبير أولاً، ثم شرع بعده في الدعاء ثانياً".[1]

ولم يكن سرُّ هذه الآية يقف عند الحكمة من مجيئها بين آيات الصيام، بل ثمت سرٌّ آخر يتمثل في بلاغتها، وفي لطف وقعها، وهدوء إيقاعها، فالآية كلها ناطقة بسحر إعجازها، وروعة إيحائها، وحسن جرسها، وقد أشار سيد قطب (ت ١٣٨٥هـ) إلى هذه الخاصية، ووقف عند هذه الروعة مشدوهاً فأطلق لقلمه العنان، وأرخى له الزمام، فأتى بالعجب العجاب، يقول عن هذه الآية: " نجد لفتة عجيبة إلى أعماق النفس وخفاياها السريرة، نجد الغوص الكامل الحبيب المرغوب عن مشقة الصوم، والجزاء المعجل على الاستجابة لله، نجد ذلك الغوص، وهذا الجزاء في القرب من الله، وفي استجابته للدعاء تصوره ألفاظ شفافة تكاد تنير ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ أية رقة! وأي انعطاف! وأي شفافية! وأي إيناس! وأين تقع مشقة الصوم، ومشقة أي تكليف في ظل هذا الود، وظل هذا القرب، وظل هذا الإيناس؟ وفي كل لفظ في التعبير في الآية كلها تلك النداوة الحبيبة... إنها آية عجيبة، تسكب في قلب المؤمن النداوة والحلوة، والود المؤنس، والرضى المطمئن، والثقة واليقين، ويعيش فيها المؤمن في جناب رضيّ، وقربى ندية، وملاذ أمين، وقرار مكين".[2]

افتُتحتْ الآية بأداة الشرط "إذا"، وفي افتتاحها بهذه الأداة غرض بلاغي يراد تحقيقه في هذا المقام؛ لارتباطه بحث المؤمنين على الدعاء، وترغيبهم فيه، يتجلى ذلك من خلال دلالة الأداة "إذا"؛ ذلك أنها تأتي في الأمور المحقق وقوعها، المتيقن بحدوثها، بخلاف أداة الشرط الأخرى (إنْ)، ولا شك أن مقام الدعاء والترغيب فيه مستلزم هذه الأداة، ومتطلب لها، كما أن في ذلك إشارة إلى تحقق الإجابة، فقد وعد – سبحانه – بذلك،

---

(١) التفسير الكبير: ٨٠/٥.

(٢) في ظلال القرآن: ١٦٧/٢.

ووعده الحق، ومن أصدق من الله قيلا.

وفي توجيه الخطاب في هذه الآية إلى رسول الله ﷺ في قوله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ تشريف لرسول الله ﷺ، وإعلاء من قدره[1]، ورفع لشأنه ومقامه، فلعلو قدره، وارتفاع شأنه توجه الخطاب إليه إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه، كما أن من تشريفه ﷺ ومن إعلاء قدره أن يتوجه إليه المسلمون ويسألونه عن هذا الأمر العظيم[2]، وقد أشار القونوي (ت ١١٩٥ هـ)، إلى السرِّ البلاغي في المغايرة في هذا الخطاب، يقول: " وتلوين الخطاب وتوجيهه إلى الرسول ﷺ؛ لأن السؤال المذكور لا يكون إلا إياه، والجواب عنه وظيفة الأنبياء".[3]

وقد ذُكرتْ هذه المسألة العظيمة من خلال أسلوب السؤال والجواب، ومن خلال الفتوى، وفي ذلك تنبيه للأذهان، وتنشيط لها، كما أن في ذلك إشارة إلى الاهتمام بها، ولفت الأنظار إليها، يؤيد ذلك أن كثيراً من العلماء يفتتحون المسائل المهمة في كتبهم بقولهم (فإن قلت).[4]

والغرض من هذه الآية أن يقتنع المؤمنون بهذه الحقيقة، ويؤمنوا بها، وليعلموا بأنه – سبحانه – " قريب منهم، ليس بينه وبينهم حجاب، ولا ولي ولا شفيع يبلغه دعاءهم وعبادتهم؛ ليتجهوا إليه وحده حنفاء مخلصين له الدين".[5]

جاءت لفظة "عبادي" في هذا المقام متممة لهذا المعنى، ومؤكدة له، ففيها كثير من الدلالات والإيحاءات المراد تحقيقها في هذا السياق، فهؤلاء المؤمنون الذين يسألون عن

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم: ١/٢٠١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ٢/١٧٨.

(٣) حاشية القونوي: ٢/٣٠

(٤) انظر: التحرير والتنوير: ٢/١٧٨.

(٥) انظر: البحر المحيط: ٢/٥٢.

ربهم هم عبيد له، ولا غنى للعبد عن خالقه ومولاه، إذ لا يستقيم أمره، ولا يحسن حاله إلا بعون من خالقه، وتوفيقه له، ومن هنا ظهرت شدة حاجته له في التضرع إليه، والانطراح بين يديه، ومن هنا جاءت لفظة "عبادي" في آية الدعاء، والحث عليه؛ إشارة إلى هذا المعنى، كما أن فيها إظهاراً لافتقار العباد إلى الله، وشدة حاجتهم إليه.

وفي إضافة لفظة "عبادي" إليه – سبحانه – تتميم لهذا المعنى، وإظهار له، كما أن فيها تشريفاً للعباد، وإعلاء من قدرهم، فقد شرف قدرهم، وارتفع أمرهم من خلال هذه الإضافة، ولذا فقد وردت لفظة "عبادي" في القرآن في أعلى المقامات وأشرفها، في مقام الدعوة والدعاء، ولذا فإن الأصح في هذه الإضافة أن يُراد بها الخصوص دون العموم[1]، والمراد بهم المؤمنون وحدهم دون سائر الخلق، فهم من حقق معنى العبودية لله – سبحانه وتعالى – ، وهم من يستحق هذا التكريم، وذلك التشريف، ومن هنا خُصوا بهذه الإضافة دون غيرهم.

كما أن التعبير بلفظة " عبادي " – كما يذكر القونوي (ت ١١٩٥ هـ)، – : "رمز إلى أنهم محتاجون إلى ذلك السؤال، المستعينون من الملك المتعال".[2]

وقد جاء جواب سؤالهم في قوله – تعالى – ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾، والتقدير: فقل لهم، بدلالة قوله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ ﴾[3]، ولا بد من هذا التقدير؛ فبدونه لا يترتب الجواب على شرطه[4]، ومع ذلك فقد حُذف هذا التقدير مع ظهوره ووضوحه، وفي حذف لفظة "قل" في هذا المقام سرٌّ بلاغي مرتبط كل الارتباط بالأمر بالدعاء، والحث عليه، ففي ذلك إشارة إلى شدة القرب بينه – سبحانه – وبين عباده، ولذا فهو يسمع كلامهم،

(١) انظر: البحر المحيط: ٥٢/٢.

(٢) حاشية القونوي: ٣٠/٢.

(٣) انظر: إملاء ما منَّ به الرحمن ٨٢/١.

(٤) انظر: روح المعاني: ٦٣/٢.

ويجيب دعاءهم[1]، فلا حاجة إذن – والحالة هذه – إلى وسيط ينقل كلامهم، ويكون بينهم حتى ولو كان ذلك رسول الله ﷺ.

كما أن هذا الحذف مظهر من مظاهر حنوه – سبحانه – بعباده، وقربه منهم، وفي ذلك إشارة إلى أنه – سبحانه – تكفل بسماع دعائهم، وضمن الإجابة لهم، ولم يقم الحوائل ولا الوسائط بينه وبينهم.[2]

كما تضمن هذا الحذف الإشارة إلى أهمية الدعاء، وعلو منزلته، وأن العبد يترقى من خلاله، ويكون قريباً من خالقه ومولاه، ولذا فهو يدعوه فيستجيب له، ويناجيه فيسمع له، فإذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك - فلا حاجة إلى الوسائط بينهم، فهو يخاطب ربه، ويتضرع بين يديه، إشارة إلى قربه – سبحانه – منه، ولطفه به.

وتأكيداً لهذه المعاني كلها، وتقريراً لها جاء الخبر مؤكداً بـ(إنَّ) في قوله ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ إشارة إلى أن هذا الخبر " غريب، وهو أن يكون -تعالى -قريباً مع كونهم لا يرونه "[3] ولهذه الأسرار كلها تمَّ حذف لفظة "قل" في هذا المقام، وهذه الأسرار – كما ذكرتُ – مرتبطة بالدعاء، شديدة العلوق به، ولذا فقد اختُصتْ هذه الآية بحذف فعل الأمر "قل" دون سائر الآيات الأخرى المماثلة لها المتضمنة السؤال، كما في قوله ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ... ﴾[4]، وقوله ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ ... ﴾[5]، وغيرها من الآيات.

وثمة وقفة مهمة مع قوله ﴿ قَرِيبٌ ﴾ يحسن الوقوف معها، والإشارة إليها؛ لأهميتها،

---

(١) انظر: حاشية الشهاب: ٢/٢٨٠.

(٢) انظر: روح المعاني: ٢/٦٣.

(٣) التحرير والتنوير: ٢/١٨٩.

(٤) البقرة: ١٨٩.

(٥) البقرة: ٢١٥.

ولشدة ارتباطها بكثير من المسائل البلاغية، فقد حمل كثير من المفسرين معنى القرب في الآية على الاستعارة التبعية[1]، وقد أشار الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في تفسيره إلى هذا الأمر، وسار على نهجه كثير من المفسرين، يقول الزمخشري في بيان معنى "القرب": " تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه، وسرعة إنجاحه حاجته من سأله بحال من قرب مكانه، فإذا دُعي أسرعت تلبيته نحوه "[2]، وقد تَلَقَّف الشيخ محيي الدين زاده (ت ٩٥١هـ) هذا القول، وزاده بسطة في الشرح والتأويل، يقول: " يعني أن القرب حقيقته هو القرب المكاني، وهو ممتنع في حقه – تعالى – بدلائل قطعية من جملتها أنه – تعالى – لو كان في مكان لما كان قريباً من الكل، فإن من كان قريباً من حملة العرش كان بعيداً من أهل الأرض، ومن كان قريباً من أهل الشرق يكون بعيداً من أهل المغرب، وبالعكس، ولما تعذر القرب المكاني في حقه – تعالى – علمنا أن القرب هنا مستعمل في الحال الشبهية بحال من قرب مكانه إلى مكان القوم من العلم بأحوالهم وأفعالهم والاستماع لأقوالهم، فيكون لفظ " قريب" استعارة تبعية تمثيلية".[3]

ولا يخفى ما تضمنته هذه الأقوال من انحرافات عقدية أُتي أصحابها من التحريف أو التعطيل أو التكييف أو التمثيل في أسمائه – سبحانه – وصفاته، وقد أحسن د. حسن محمد باجودة في حديثه عن معنى قوله ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ يقول: " والتحقيق: أن مذهب السلف إقرار النصوص في الصفات على ظاهرها من غير تعطيل، ولا تمثيل ولا تأويل والله – تعالى – قد أسند القرب في هذه الآية إلى ذاته فنأخذ هذا الإسناد على ظاهره مع

---

(١) ومن هؤلاء المفسرين: الزمخشري، انظر: الكشاف: ١/٣٣٧، وأبو السعود، انظر: إرشاد العقل السليم: ١/٢٠١، ومحيي الدين زادة، انظر: حاشيته: ١/٤٩٥، والألوسي، انظر: روح المعاني: ٢/٦٣، وغيرهم.

(٢) الكشاف: ١/٣٣٧.

(٣) حاشية محيي الدين زادة: ١/٤٩٥.

إثبات تنزيهه عن مماثلة خلقه، وإثبات صفات الكمال التي نفهم منها المراد من هذا القرب في كل سياق بحسبه".[1]

وقد زاد هذا المعنى وضوحاً الإمام القاسمي (ت١٣٣٣هـ) في تفسيره لهذه الآية، يقول: " والقريب من أسمائه – تعالى – الحسنى، ومعناه: القريب من عبده بسماعه دعاءه، ورؤيته تضرعه، وعلمه به، كما قال ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[2]، وقوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾[3]".[4]

والقول الفصل في هذا المعنى ما ذكره الإمام تقي الدين ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) – رحمه الله – يقول: " ودخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله: الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة من أنه – سبحانه – فوق سماواته على عرشه، عليّ على خلقه، وهو معهم أينما كانوا، يعلم ماهم عاملون، كما جمع بين ذلك في قوله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[5]، وليس معنى قوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ أنه مختلط بالخلق، فإن هذا لا توجبه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، بل القمر – آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته– وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر أينما كان، وهو – سبحانه – فوق العرش، رقيب على خلقه، مهيمن عليهم، مطلع إليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته، وكل هذا الكلام الذي ذكره الله من أنه فوق العرش، وأنه معنا

---

(١) تأملات في سورة البقرة: ١٠٤٦/٢ .

(٢) ق: ١٦ .

(٣) الحديد: ٤ .

(٤) محاسن التأويل: ٤٣١/٣ .

(٥) الحديد: ٤

حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف، ولكن يُصان عن الظنون الكاذبة ... ودخل في ذلك: الإيمان بأنه قريب من خلقه مجيب، كما جمع بين ذلك في قوله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ... ﴾ وقوله ﷺ للصحابة لما رفعوا أصواتهم بالذكر: (والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلة أحدكم)[1]، وما ذُكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذُكر من علوه وفوقيته، فإنه – سبحانه – ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وهو عليٌّ في دنوه، قريب في علوه".[2]

وقد تعمدتُ ذكر هذه المسألة والإطالة فيها؛ لأهميتها، ولخطورتها – أيضاً - ، ولأدلف منها إلى قضية أخرى هي من الأهمية بمكان، وهي أن كثيراً من المسائل البلاغية بحاجة إلى تخليصها من الشوائب التي علقتْ بها، فحطَّتْ من شأنها، وأنقصتْ من قدرها، مما جعلها عرضة للنقد، أو الازدراء أو التهميش، خاصة فيما يتعلق بالأمور العقدية، وقد تنبه إلى هذه المسألة وخطورتها بعض الباحثين الغيورين، ولهم في ذلك جهود مشكورة، كما أن لهم مساعي حثيثة في تخليص البلاغة مما علق بها من الانحرافات العقدية، وهي جهود مشكورة ومساعٍ حثيثة[3]، وإن كنتُ أدعو إلى الاعتدال في معالجة هذه القضية؛ حتى لا تُجر البلاغة إلى مباحث العقيدة، إذ لا بد أن تتمايز الأمور، حتى لا يختلط أحدهما في الآخر، فلكل واحد منهما تخصصه القائم

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر إلا في المواضع التي ورد الشرع برفعه فيها كالتلبية، وغيرها، واستحباب الإكثار من قول " لاحول ولا قوة إلا بالله "، برقم: ٦٨٦٧ .

(٢) العقيدة الواسطية: ٤٤٩ .

(٣) ومن هؤلاء: أ.د محمد الصامل، فقد ناقش هذه القضية وبسطها في كتابه " المدخل إلى بلاغة أهل السنة والجماعة"، وكذلك د. عبدالمحسن العسكر، ناقض هذه القضية في بحثه الموسوم بـ(إصلاح "الإيضاح" للخطيب القزويني: استدراكات ومناقشات)، وقد أفرد جزءاً للملحوظات العقدية، انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد: ٤٦، لعام ١٤٢٦هـ .

بذاته المنبثق من موضوعاته، ومباحثه الخاصة به.

وكأن قوله ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ تمهيد للجملة التي بعدها وهي قوله ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ فقد قرَّبتْ من معناها، وسهلتْ من قبولها[1]، كما أن قوله - كذلك - ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ " تقرير للقرب، ووعد للداعي بالإجابة "[2] ومن هنا يتجلى السرُّ في اختيار لفظة ﴿ أُجِيبُ ﴾ فإن فيها الوعد الحق بالإجابة، ولذا جاء اختيارها في هذا المقام، دون لفظة "أسمع" إذ السماع لا يلزم منه الإجابة، أما قوله ﴿ أُجِيبُ ﴾ فهو وعد منه – سبحانه – ووعده الحق، فقد أمر بالدعاء، وتكفل بالإجابة.

وقد فُصلت جملة ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ عما قبلها؛ لكونها مقررة لها، فهذا موضع من مواضع الفصل، وقد أبان هذا الأمر وذكره ابن التمجيد(ت٨٨٠ هـ)، في معرض شرحه لكلام البيضاوي السابق، يقول: " قوله (للقرب) أي قوله – عزَّ وجل – ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ جملة مقررة للقرب المستفاد من جملة ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ولذلك لم يُعطف عليه ".[3]

وثمة إشكال قد يرد على هذه الآية، وقد أورده القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسيره، يقول: "فإن قيل: فما للداعي قد يدعو فلا يُجاب له؟ فالجواب: أن يُعلم أن قول الحق في الآيتين ﴿ أُجِيبُ ﴾ و﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[4] لا يقتضي الاستجابة مطلقاً لكل داعٍ على التفصيل، ولا بطل مطلوب على التفصيل، فقد قال ربنا – تبارك وتعالى – في آية أخرى ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[5]، وكل مصرٍّ على كبيرة عالم

(١) انظر: التحرير والتنوير: ١٨٩/٢ .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢١٨/١ .

(٣) حاشية ابن التمجيد: ٣١/٢ .

(٤) غافر: ٦٠ .

(٥) الأعراف: ٥٥ .

بها أو جاهل فهو معتدٍ، وقد أخبر أنه لا يحب المعتدين، فكيف يستجيب له؟!، وأنواع الاعتداء كثيرة".[1]

ومما قيل – كذلك – في الإجابة على ذلك الإشكال: أن في الآية حذفاً، تقديره: أجيب دعوة الداع إن شئتُ، يدل على ذلك قوله في آية أخرى ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾[2]".[3]

وبعد أن أمر – سبحانه – عباده بالدعاء، وبعد أن تكفل بالإجابة ختم الآية بقوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ جاء الأمر بالاستجابة له في قوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ متفرع عما قبله، والمعنى: "فليستجيبوا لي إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، كما أجيبهم إذا دعوني لمهماتهم"[4]، وقد أشار بقوله (كما أجيبهم) إلى معنى التفريع الذي تضمنته الآية، وقد ذكر هذا الأمر، ونصَّ عليه القونوي (ت ١١٩٥ هـ)، يقول: قوله "(كما أجيبهم) إشارة إلى تفريع ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ على ما قبله، والفاء جزائية، شرطه المحذوف إذا دعوتهم، أي إذا أمرت الداعي به ودعاهم".[5]

فإذا كان – سبحانه – يجيب دعوتهم فهم مأمورون بالاستجابة له والانقياد التام له، والمعنى: فليستجيبوا لي "أي إذا دعوتهم للإيمان بالطاعة، كما أجيبهم إذا دعوني لمهماتهم".[6]

وفي مجيء الأمر بالاستجابة بصيغة الاستفعال إشارة إلى صعوبته، ومشقته على

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠٧/٢.

(٢) الأنعام: ٤١.

(٣) تفسير القرآن: ١٨٦/١.

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢١٨/١.

(٥) حاشية القونوي: ٣١/٢.

(٦) محاسن التأويل: ٤٤٩/٣.

النفس البشرية، كما أن فيه – كذلك – معنى الإكراه والإلزام، وأطر النفس أطراً على هذا الأمر، وحملها بالقوة على هذه الاستجابة حتى تصل إلى مبتغاها، وتحقق الاستجابة لله.[1]

وقوله ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ من عطف الخاص على العام، وهو طريق من طرق الإطناب، تتجلى بلاغته في هذا المقام أن فيه مزيداً من الاهتمام بالخاص، وهو الإيمان، ولذا أُفرد بالأمر، وخُصَّ بالذكر، وإن كان داخلاً في عموم الأمر بالاستجابة لله – عزَّ وجل – .

وللطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) وقفة بلاغية مع الأمر ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ ودلالاته، يقول: " فيجوز أن يكون المراد بالاستجابة امتثال أمر الله، فيكون ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ عطفاً مغايراً، والمقصود من الأمر الأول: الفعل، ومن الفعل الثاني: الدوام، ويجوز أن يراد بالاستجابة مايشمل استجابة دعوة الإيمان، فذكرُ ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ عطف خاص على عام للاهتمام".[2]

والغرض من الأمر بالإيمان: الحث والتحريض، وأمرهم بالثبات على ماهم عليه، والاستمساك به[3]، وقد ذكر ابن التمجيد (ت٨٨٠ هـ)، بياناً بليغاً لمعنى قول البيضاوي (أمر بالثبات)، يقول: " قوله (أمر بالثبات) وإنما أخرجه عن ظاهره الذي هو أمر لهم بإحداث الإيمان؛ لأنهم مؤمنون بالفعل، متصفون بالإيمان بقرينة الإضافة في ﴿عِبَادِي﴾ فإنها للتشريف، ولا شرف فيمن لا إيمان له، ولا يستحق هو التشريف"[4]، ونظير ذلك قوله – تعالى – ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ

(١) انظر: نظم الدرر: ٧٦/٣ .

(٢) التحرير والتنوير: ١٨٠/٢ .

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم: ٢٠١/١ .

(٤) حاشية ابن التمجيد: ٣١/٢ .

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾[1] ففي الأمر زيادة في التمسك به، والحرص عليه، والازدياد فيه.

ثم ختم – سبحانه – الآية بقوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي لعلهم يهتدون إليَّ بسبب إيمانهم واستجابتهم لي[2]، فهم المستفيدون من هذه الاستجابة، ومن ذلك الإيمان، فهم من سيقطف ثمارها، وينعم بخيرها، وهو – سبحانه – غني عن العالمين.

يعود الحديث بعد ذلك عن الصيام، وبيان كثير من أحكامه في قوله – تعالى – : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

في افتتاح الآية بقوله ﴿أُحِلَّ﴾ إشارة إلى ما كان عليه الصوم أول ما فُرض فكان يحل لهم الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء، أو أن ينام قبل ذلك، فمتى ما نام أو صلى العشاء الآخرة فقد حُرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى الليلة القابلة، فكان في ذلك مشقة عظيمة عليهم؛ لكونهم يختانون أنفسهم[3]، كما أخبر الله عنهم في هذه الآية، فجاءت الرخصة في هذه الآية، وأُبيح لهم الأكل والشرب والجماع حتى الفجر.

وقد تضمنت جملة ﴿أُحِلَّ﴾ هذه المعاني كلها، وأشارت إليها، فقد بينتْ حال الصوم أول ما فُرض، كما أشارت – كذلك – إلى ما آل إليه أمر الصيام بعد هذه الرخصة، وقد تمَّ التعبير عن هذه المعاني كلها من خلال جملة واحدة، وهذا من إعجاز القرآن الكريم، يتجلى ذلك في إيجازه في الدلالة على المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، فهي من

---

(١) النساء: ١٣٦.

(٢) انظر: جامع البيان: ٢٢٧/٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٢٣٥/١، و: تفسير القرآن الحكيم: ١٤٦/١.

إيجاز القِصَر وقد أشار د. حسن محمد باجودة إلى دلالات لفظة ﴿ أُحِلَّ ﴾ يقول: "وإن جملة ﴿ أُحِلَّ ﴾ تقذف إلى الذهن بالحال المقابلة التي كانت من قبل حينما كان بالأمس حراماً ما هو حلال اليوم، فكأننا بصدد طباق معنوي".(١)

أُسندتْ ﴿ أُحِلَّ ﴾ إلى ما لم يُسمَّ فاعله؛ وذلك للعلم به، فهو وحده – سبحانه – من يأمر بهذه الأحكام ويُشَرِّعُها، فأمر الحلال والحرام مختص به، ومقصور عليه، لا يملك أحد سواه ذلك، ولذا حُذف الفاعل في هذا المقام إشارة إلى هذا المعنى.

جاءت هذه الرخصة رحمة منه – سبحانه ـ بالمؤمنين، وشفقة عليهم، يدل على ذلك نظم الآية كلها، وذلك من خلال تقديم الضمير الخاص بالمؤمنين في قوله ﴿ لَكُمْ ﴾ فقد قُدم، وجاء تالياً للفظة ﴿ أُحِلَّ ﴾ اهتماماً بالمؤمنين، فقد خُفف الأمر عنهم، ورُوعي أمرهم؛ عناية بهم ورحمة، ومن هناء جاء التقديم دالاً على هذا المعنى ومشيراً إليه.

وأما الأمر الذي أباحه الله لهم فقد جاء ذلك في قوله ﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾، وقد تضمنت هذه الألفاظ كثيراً من الأسرار البلاغية التي تضمنها النظم الكريم، ولعل من أبرزها: أنها أُخرتْ وحقها التقديم، وفي ذلك تشويق لها؛ فإن في تأخير ما حقه التقديم تشويقاً له، فستظل النفس مترقبة له، متشوقة لمعرفة ما أُبيح لهم، ويكون هذا سبباً في تمكن هذا الأمر واستقراره في نفوسهم أفضل تمكن.(٢)

ومن بلاغتها كذلك: التعبير عن الجماع بقوله ﴿ٱلرَّفَثُ﴾ وذلك سرٌّ من أسرار القرآن الكريم، فقد تم التعبير بهذه الكلمة، وهي كلمة جامعة أغنت عن كثير من الألفاظ، إذ المراد بها – كما يذكر الزجاج - كل ما يريده الرجل من المرأة.(٣)

ولذا فإن الرفث في هذه الآية كناية عن الجماع، بل إن كل ما ذُكر في القرآن الكريم من

---

(١) تأملات في سورة البقرة: ١٠٤٨/٢ .

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم: ٢٠١/١ .

(٣) انظر: معاني القرآن: ٢٥٥/١ .

المباشرة والملامسة والإفضاء، والدخول والرفت كل ذلك كناية عن الجماع[1]، وهذا سرٌّ من أسرار القرآن الكريم، ووجه من وجوه إعجازه البيانية، وذلك في انتقائه الألفاظ الدالة على معانيه من غير مكاشفة ولا خدش للحياء، ولا غرو في هذا فهو – سبحانه – " حييٌّ كريم، يُكني بالحسن عن القبيح "[2]، ولذا فإن الكناية وسيلة مؤدبة يجد فيها المتكلم فسحة وسعة في الحديث عن المعاني التي لا يُحسن التصريح بها، كما أنها تربي فينا الذوق الرفيع، والخلق الحسن، وتعطينا درساً في الحفاظ على أذواق الناس وأسماعهم، ولذا فهي تجنبهم سماع ما لا يرغبون، مما يؤذي أذواقهم، ويخالف أطباعهم، وهذه خاصية من خصائص أسلوب الكناية التي تميزت بها عن سائر الأساليب البيانية الأخرى؛ " إذ يُستطاع بأسلوب الكناية التعبير عن المعاني غير المستحسنة بألفاظ لا تعافها الأذواق، ولا تمجها الآذان، وشواهد هذا كثير في النظم الكريم الذي لا يحوي إلا التعبير الحسن، والكلام العذب السائغ ".[3]

وثمة أسرار بلاغية في التعبير بلفظة ﴿الرَّفَثُ﴾ في هذا المقام، فمن ذلك ما أورده البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ)، في تفسير هذه الآية، يقول: " والرفت كناية عن الجماع؛ لأنه لا يكاد يخلو من رفت، وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه... وإيثاره هنا لتقبيح ما ارتكبوه ولذلك سماه خيانة "[4]، وقد بسط القونوي (ت ١١٩٥ هـ)، كلام البيضاوي، وزاده شرحا وإيضاحاً، يقول: " وقوله (وإيثاره هنا لتقبيح ما ارتكبوه) أي إيثار "الرفت" هنا ولم يجئ بالمباشرة ونحوها كما قال – تعالى – ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾

---

(١) انظر: معالم التنزيل: ١٥٦/١ .

(٢) تفسير القرآن: ١٨٦/١ .

(٣) علم البيان: ٢٦٨، د. بسيوني عبدالفتاح فيود .

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢١٩/١ .

لتقبيح ما ارتكبوه من غير إذن الشارع، فحين الإذن عبَّر بالمباشرة دون الرفت، فقيد ههنا احترازاً عن موضع آخر كما عرفت، وقوله (ولذلك سماه خيانة) أي لأمانة الله إذ الشرائع أمانة الله، فمن تجاوزها فقد خان الله ورسوله، وهذا التعبير وإن كان بعد حله لكن ما صدر منهم حين صدوره لا يحل لهم ذلك، فأول الكلام صدر بالرفت حين الإذن تقبيحاً لما ارتكبوه أولاً " . (١)

ثم ذكر – سبحانه – سبب الإباحة، وباعث الرخصة في قوله ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ ومن هنا يتجلى السرُّ في ارتباط هذه الجملة بالتي قبلها، وقد أشار إلى هذه العلاقة الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، يقول: " فإن قلت: ما موقع قوله ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ ﴾ قلت: هو استئناف، كالبيان لسبب الإحلال، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قل صبركم عنهن، وصعب عليكم اجتنابهن، فلذلك رُخص لكم في مباشرتهن ".(٢)

فجملة ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ كالعلة لما قبلها، ولذا جاءت مفصولة عنها، فهي موضع من مواضع الفصل، وقد ذكر البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ) سبب هذا الفصل، يقول: "﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ استئناف يبين سبب الإحلال، وهو قلة الصبر عنهن، وصعوبة اجتنابهن؛ لكثرة المخالطة، وشدة الملابسة " (٣)، ومن هنا يتبين الارتباط الوثيق بينها وبين ما تقدمها، كما أن الجماع وما يكون بين الرجل وزوجه مما يُستر ويطوى، فلا يحسن ذكره والتصريح به، ولذا كان بحاجة إلى لباس وغطاء، وقد أشار إلى هذا المعنى، عبدالكريم الخطيب – وهي لفتة رائعة – يقول: " وانظر إلى قوله

---

(١) حاشية القونوي: ٢/٢٣ .

(٢) الكشاف: ١/٣٣٨ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١/٢١٩ .

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ وفي قوله بعد ذلك ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ تجد كيف ألقى – سبحانه – على هذا الرفث ستاراً جميلاً رقيقاً، يستر به ما يكون بين الزوجين في حال اتصالهما، فلا يطلع أحد على ما يكون بينهما".[1]

كما تضمن قوله ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ تشبيهاً بليغاً اشتمل على كثير من الأسرار والدلالات، وقد حمل هذا التشبيه كثيراً من البلغاء والمفسرين للحديث عنه، والإفاضة فيه، فكلٌّ يمتاح منه، فكان نبعاً فياضاً لا ينضب، وكل يكتب ما يعنُّ له مما ينثال على خاطره من دلالات التشبيه وبلاغته، وكل يسجل ما يرد على خاطره من جمالياته، ومع ما كُتب عن هذا التشبيه وبلاغته إلا أنه سيظل يفيض بالأسرار والأسرار.

فقد تم تشبيه المرأة بلباس الرجل، والرجل – كذلك – باللباس للمرأة، وأما وجه الشبه في هذا التشبيه فلم يُذكر، وهذا سرٌّ من أسرار هذا التشبيه، بل تكاد تكون هذه الظاهرة خاصية من خصائص التشبيه في القرآن الكريم، وهو حذف وجه الشبه في كثير من تشبيهاته، وقد ذكر هذه الخاصية د. عبدالعظيم مطعني في معرض حديثه عن الخصائص التعبيرية لأسلوب التشبيه في القرآن الكريم، يقول: " إن الباحث في تشبيهات القرآن يراه محذوف الوجه دائماً، فهي إذن من التشبيهات المجملة التي تقتضي التماثل التام بين الطرفين، وفي هذا نوع من تأكيد الصلة بين ذينك الطرفين "[2]، والسرُّ في ذلك: إرادة العموم، وعدم تقييد وجه الشبه في المذكور، ليشمل كل معنى، ويدخل فيه كل وجه، ويكون ذلك داعياً على التأمل، ومزيدٍ من النظر؛ للوقوف على وجه الشبه.

---

(١) التفسير القرآن للقرآن: ١/٢٠٤.

(٢) انظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ٢/٢٩٢.

ولذا فقد تعددت أقوال العلماء في تحديد وجه الشبه في هذا التشبيه، فقيل: إن وجه الشبه حسي، وبيان ذلك: " أن كلا منهما يلاصق صاحبه، ويشتمل عليه عند المعانقة والمضاجعة كما يلاصق اللباس صاحبه، ويشتمل عليه "[1]، ومن هنا شُبه كل واحد منهما باللباس للآخر، وهذا المعنى معروف عند العرب، ومذكور في أشعارهم، ومن ذلك قول النابغة الجعدي: [2]

إذا ما الضجيع ثَنَى عطفها		تَثَنَّتْ فكانت عليه لباساً

يؤكد هذا المعنى – أيضاً - : أن كل واحد من الزوجين " جُعل لصاحبه لباساً لتخرجهما (أي لخروجهما من ثيابهما) عند النوم، واجتماعهما في ثوب واحد، وانضمام جسد كل واحد منهما لصاحبه بمنزلة ما يلبسه على جسده من ثيابه "[3]، يدل على المعنى ما رُوي عن العرب قولهم عن المرأة: هي لباسك، وفراشك، وإزارك؛ لكون الرجل يسكن إليها، ويتلفع بها.[4]

فيكون وجه الشبه حينئذ الإحاطة والشمول يدل على ذلك ورود لفظة "اللباس" في القرآن الكريم لهذا الغرض، ومن أجل تصوير دقة العذاب الذي حلَّ بمن كفر بنعم ربه، ولم يشكرها، في قوله ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[5]، فقد تَمت الاستعارة في لفظة "لباس"؛ لتصوير دقة الإحاطة والشمول الذي حلَّ بهم، فضلاً عن شدة إصابته ودقته.

---

(١) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح: ٤١٨/٣ .

(٢) انظر: شعر النابغة الجعدي: ٨١ .

(٣) انظر: جامع البيان: ٢٣٢/٣ .

(٤) انظر: مجاز القرآن: ٦٧/١ .

(٥) النحل: ١١٢ .

وقيل: إن وجه الشبه عقلي؛ لكون كل واحد منهما يسكن إلى الآخر، ويطمئن إليه، ومنه قوله – تعالى - ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾[1]، أي سكناً تسكنون فيه، وكذلك الزوجة سكن لزوجها يسكن إليها، فيكون كل واحد منهما لباساً للآخر؛ بسبب سكونه إليه، وميله نحوه.[2]

وقد يكون الغرض من تشبيه كل واحد منهما باللباس للآخر؛ لكونه يصونه من الوقوع في الفاحشة والردى، فكل واحد منهما كاللباس الساتر للعورة، يدل على ذلك قول الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ): "شبه كل واحد منهما باللباس للآخر؛ لأنه يصونه من الوقوع في فضيحة الفاحشة، كاللباس الساتر للعورة "[3]، ولذا فقد أصاب التشبيه بهذه الآية المحز، وحقق الغرض حين نزَّل "كلاً من الزوجين بالنسبة للآخر منزلة الثياب والملابس التي تدفع عن صاحبها أذى القُر، ولفح الحر، وما شاكلها من أنواع الأذى والقذى، وإن كلاً من الزوجين بمثابة الملابس التي تصون المرء، ويتجمل بها ويتزين، وهل يستطيع أحد سوى الزوج أن يشبع رغبة زوجه، ويطفئ غلته، ويروي ظمأه، وهل يستطيع أحد سوى الزوج أن يعف زوجه، ويحميه من غوائل الطرق، ويصونه بفضل الله - تعالى - من حبائل الشيطان".[4]

والطرفان في هذا التشبيه مفردان غير مقيدين، وقد أشار إلى نوع التشبيه ابن يعقوب المغربي(ت ١١٠٨ هـ)، يقول – بعد أن ذكر الأسرار البلاغية للتشبيه - : " فما أفاده الجار و المجرور وهو كونه للنساء أو للرجال لا يتوقف عليه الوجه، وما لا يتوقف عليه الوجه لا يُعد في التقييد ولا في التركيب، إذ لا دخل في التشبيه إلا لما يتوقف عليه،

---

(١) النبأ: ١٠.

(٢) انظر: جامع البيان: ٢٣٢/٣.

(٣) الإيضاح: ٣٦٥.

(٤) تأملات في سورة البقرة: ١٠٤٩/٢.

ويُؤخذ باعتباره، فلهذا قلنا إن هذا التشبيه من تشبيه المفرد بالمفرد بلا تقييد، ولم نعد المجرور في الظرف الذي هو اللباس قيداً، وهو (لكم ولهن) فليُفهم". [1]

وهكذا تتعدد الآراء، وتتكاثر الأقوال في بلاغة هذا التشبيه، وفي بيان المراد منه، وفي تحديد وجه الشبه فيه، والذي أرى ألا تعارض بين هذه الأقوال، فالنظم الكريم يتحمل هذا كله، ولعل هذا هو سرُّ حذف وجه الشبه؛ لكي تتعدد الآراء، وتتكاثر الأقوال؛ لأن في تعددها وكثرتها تكثيفاً للمعنى، وتعميقاً للفكرة، وتأكيداً – كذلك – لبلاغة هذا التشبيه، وعلو كعبه في البيان.

إذن فهذه هي طبيعة العلاقة بين الرجل وزوجه، وهل ثمة أقرب إلى الإنسان من ثوبه الملاصق به؟ وهل ثمة حاجة أحوج إليه من لباس يستره ويواريه، فهذه هي طبيعة العلاقة بينهما، وتلك هي الحاجة إليها، وهي علاقة ثابتة، وحاجة مستمرة، يدل على هذا المعنى ويؤكده نظم هذه الجملة ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ والمتأمل لها يجد أنها جاءت جملة اسمية؛ إذ يُراد توظيف دلالتها في تأكيد المعنى وتثبيته، وذلك لدلالة الجملة الاسمية على الثبات والدوام، ومن هنا ذكر القرآن هذه الحقيقة ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ بهذا الطريق، وبهذا الأسلوب تأكيداً لها، وإشارة إلى أنها حقيقة ثابتة ودائمة، وفي ذلك إشارة إلى أن العلاقة الزوجية، والبيوت الأسرية تقوم على الاستقرار، وعلى الثبات والدوام، ولذا كانت سكناً، والله أعلم بمراده.

والمتأمل لهذا التشبيه يجد أن قوله ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ ﴾ مقدَّم على قوله ﴿وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ فقد قُدِّمتْ أولا حاجة الرجل إلى زوجته، فذُكر في النظم أنها لباس للزوج، ولأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) وقفة بيَّن فيها سبب هذا التقديم وبلاغته، يقول: " قُدِّم ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ ﴾ على ﴿وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ لظهور احتياج الرجل إلى المرأة، وقلة صبره

(١) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح: ٤١٨/٣.

عنها، والرجل هو البادي بطلب ذلك الفعل، ولا تكاد المرأة تطلب ذلك الفعل؛ لغلبة الحياء عليهن؛ حتى إن بعضهن تستر وجهها عند المواقعة حتى لا تنظر إلى زوجها حياء وقت ذلك الفعل".[1]

وقد ذكر القونوي (ت ١١٩٥ هـ)، تعليلاً آخر لتقديم ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ على ﴿وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، يقول: "قُدم كونهن لباساً لهم؛ لأن الكلام في كونهن حلالاً لهم، ولما لم يستلزم ذلك كون الرجال لباساً لهن ذكر عقيب ذلك كونهم لباساً لهن"[2]، وإن كنتُ أرى أن تعليل أبي حيان أقوى من تعليل القونوي؛ لما في تعليل أبي حيان من إشارة إلى طبيعة المرأة العربية، وما جُبلت عليه من الحياء، ولِما فيه من بيان لطبيعة الرجل، وعلوقه بالمرأة.

وقوله – تعالى – ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ استئناف آخر متضمن الحكمة من إباحة الأكل والشرب والجماع ليلة الصيام، وذلك ببيان ما كان عليه حالهم مع الصيام أول ما فُرض.

ولم يُذكر في النظم الكريم بيان هذه الخيانة ونوعها، فقد تمَّ حذفها في هذا السياق وطيها، وفي هذا الحذف استقباح لها، وتنزيه للقوم من التصريح بها في هذا السياق، ومن البلاغة: حذف ما يُستحى من ذكره، وما يُستقبح منه، ومع ذلك فإن لهذه الخيانة ارتباطاً بالمقام الذي ذُكرتْ فيه، وقد أشار إلى هذا المعنى الرازي (ت ٦٠٦هـ) في تفسيره، يقول: "ذكر الله هنا أنهم كانوا يختانون أنفسهم إلا أنه لم يذكر تلك الخيانة كانت في ماذا، فلا بد من حمل الخيانة على شيء يكون له تعلق بما تقدم وما تأخر، والذي تقدم هو ذكر الجماع، والذي تأخر قوله ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ فيجب أن يكون المراد

(١) البحر المحيط: ٥٦/٢.

(٢) حاشية القونوي: ٣٢/٢

بهذه الخيانة الجماع "[1]، وقد بيّن الإمام الطبري (ت ٣١٠هـ) في تفسير هذه الآية أن الخيانة منهم كانت في الجماع، وفي الأكل والشرب في الوقت الذي كان حراماً عليهم ذلك.[2]

وقد آثر النظم القرآني في هذا المقام لفظة ﴿ تَخْتَانُونَ ﴾ لِما لها من الدلالات المراد تقريرها في هذا السياق، كما أنها وحدها الدالة على ما كان عليه القوم قبل الإباحة؛ وذلك أن فيها زيادة في المعنى، إشارة إلى ما كان يختلج في صدورهم، وما يدور في خلدهم من أمر هذه الخيانة، ففيها زيادة في الدلالة والجهد، كما أن في الاكتساب زيادة على الكسب[3]، ولا يخفى أن الزيادة في المبنى زيادة في المعنى كذلك.

وفي مجيء لفظة ﴿ تَخْتَانُونَ ﴾ فعلاً مضارعاً إشارة إلى هذا المعنى؛ وذلك أن فيها دلالة على التجدد والاستمرار، فقد تجدد حدوث هذه الخيانة، وتكرر وقوعها منهم، كما أن في حدوث هذا الفعل منهم وتكراره إشارة إلى تلك "الحالة التي كان يعانيها الصائمون من صراع بين الطبيعة النفسية الغالبية وبين السمو الروحي الذي يريد أن يبلغه الصائمون بصيامهم، وأن يجتنبوا الرفث الذي يقع بين الزوجين".[4]

والمتأمل في هذا النظم ﴿ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ يجد أن الخيانة منهم كانت لأنفسهم؛ إذ وبال المعصية عائد عليهم، ولذا فهم يظلمون أنفسهم، وينقصون حقها وحظها من الخير والهدى، ولا يضرون الله شيئاً[5]، بيد أنه – سبحانه – بهم برٌّ رحيم، فهو يعذرهم، ولذا فقد تاب عليهم، وعفا عنهم، ومن توبته عليهم بأن خفف عليهم،

---

(١) التفسير الكبير: ٥/٩٩.

(٢) انظر: جامع البيان: ٣/٢٣٣.

(٣) انظر: الكشاف: ١/٣٣٨.

(٤) التفسير القرآني للقرآن: ١/٢٠٥.

(٥) انظر: البحر المحيط: ٢/٥٦.

وأباح لهم الأكل والشرب ليلة الصيام إلى الفجر.[1]

وقد عفا – سبحانه – عنهم، وبالغ في العفو، فهو – سبحانه – أهل الكرم والجود، فقد تاب عليهم بأن أباح لهم ما كان محرماً، ووسع عليهم أمراً كان موجباً للإثم والخيانة، وزاد في كرمه وعفوه بأن عفا عنهم، وغفر لهم ما سلف منهم من الخيانة.[2]

جاءت الإباحة صريحة في قوله ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ دلت لفظة " الآن" بما تضمنت من دلالات بحكم مغاير لما كان عليه من ذي قبل، كما أن فيها شروعاً في بيان الرخصة التي رخَّصها الله، وخفف بها عليهم، ولذا فإنك واجد في لفظة " الآن" " ما يشير إلى إيذان بصورة جديدة للصوم على نحو الوجه الذي كان قائماً عليه".[3]

وأما الرخصة فهي كامنة في قوله ﴿ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ والغرض من الأمر: الإباحة، وفي ذلك إشارة إلى الرخصة التي منَّ الله بها عليهم، فهي كالأمر بالشيء بعد النهي عنه، إشارة إلى حله وإباحته.[4]

وقوله ﴿ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ كناية عن الجماع، وكل ما ذُكرتْ المباشرة في القرآن فالمراد بها – كما يذكر الطبري (ت ٣١٠هـ) – الجماع، وسُمي بذلك: لملاقاة بشرة كل واحد منهما بالآخر[5]، وهذه الكناية من بلاغة القرآن الكريم وجمالياته، حين كنى عن هذا المعنى ولم يصرح به، وذلك شأنه في مثل هذه الموضوعات، وفي ذلك حماية للأذواق وصيانة لها مما يشينها مما يُستقبح من سماعه.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢/٢١٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن الحكيم: ١/١٤٧.

(٣) التفسير القرآني للقرآن: ١/٢٠٥.

(٤) انظر: تفسير القرآن الحكيم: ٢/١٧٨.

(٥) انظر: جامع البيان: ٣/٢٤٣.

وقد ذكر بعض المفسرين السرَّ في مجيء قوله ﴿ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ عقب قوله ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ ﴾ وذكروا أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين هاتين الجملتين، كما تضمنت – كذلك – السرَّ في إباحة المباشرة، والثمرة الناتجة منها، وقد أشار إلى هذه المعاني كلها ابن القيم (ت٧٥١هـ)، يقول: " لما خفف الله عن الأمة بإباحة الجماع ليلة الصوم إلى طلوع الفجر، وكان المجامع يغلب عليه حكم الشهوة، وقضاء الوطر حتى لا يكاد يخطر بقلبه غير ذلك أرشدهم – سبحانه – إلى أن يطلبوا رضاه في مثل هذه اللذة، ولا يباشرونهن بحكم مجرد الشهوة، بل يبتغون ما كتب الله لهم من الأجر والولد الذي يخرج من أصلابهم يعبد الله ولا يشرك به شيئاً، ويبتغون ما أباح الله لهم من الرخصة بحكم محبته بقبول رخصته، فإن الله يحب أن يُؤخذ برخصته، كما يكره أن تُؤتى معصيته، ومما كُتب لهم ليلة القدر فأُمروا أن يبتغوها... فكأنه – سبحانه – يقول: اقضوا وطركم من نسائكم ليلة الصيام، ولا يشغلكم ذلك عن ابتغاء ما كتب الله لكم من هذه الليلة التي فُضِّلتم بها ".[1]

إذن فقد تضمن قوله ﴿ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ الإشارة إلى الحكم المنطوية من إباحة المباشرة، وفي ذلك تهذيب لهذه العملية، وسمو بها، وقد تمت الإشارة إلى هذا المعاني كلها بقوله ﴿ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾، ولذا فإن هذه الآية من إيجاز القِصَر؛ لتضمنها كثيراً من المعاني، وقد أشار الطبري (ت ٣١٠هـ) في تفسيره إلى هذا الإيجاز، يقول – بعد أن ذكر كثيراً من الأقوال التي قيلت في بيان المراد بها - : " وقد يدخل في قوله ﴿ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ جميع معاني الخير المطلوبة، غير أن أشبه المعاني بظاهر الآية قول من قال: معناه: وابتغوا ما كتب الله لكم من الولد؛ لأنه عقيب قوله ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ ﴾ بمعنى جامعوهن، فلأن يكون قوله ﴿ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ بمعنى: وابتغوا

(١) التفسير القيم: ١٤٥.

ما كتب الله في مباشرتهن إياهن من الولد والنسل أشبه بالآية من غيره من التأويلات التي ليس على صحتها دلالة من ظاهر التنزيل، ولا خبر عن الرسول".[1]

جاءت جملة ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ موصولة بالجملة التي قبلها؛ وذلك لاتفاق الجملتين في الإنشائية، كما أن بينهما تناسباً في المعنى؛ وذلك أن هذه الجملة من ضمن ما أُبيح لهم ليلة الصيام، فكما أُبيح لهم الرفث إلى نسائهم، فكذلك أُبيح لهم الأكل والشرب إلى طلوع الفجر.

ولذا فالغرض من الأمر من قوله ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الإباحة، وفي ذلك امتنان منه – سبحانه – عليهم بهذه الرخصة، جاءت هذه الرخصة تخفيفاً عليهم، ورحمة بهم، وقد تمت الإشارة إلى هذه المعاني من خلال تقديم الجار والمجرور في قوله ﴿لَكُمُ﴾ فقد قُدم على ذكر الخيط الأبيض، والخيط الأسود، وفي تقديمه إشارة – كذلك - إلى الحفاوة بشأنهم، والعناية بأمرهم، ولذا قُدم ذكرهم، وخُفف العنت عنهم، وأُزيلت المشقة الملقاة على كواهلهم بإباحة الأكل والشرب لهم إلى طلوع الفجر.

والمراد بالخيط الأبيض: ضوء النهار، وبالخيط الأسود: سواد الليل، والمعنى: "كلوا بالليل في شهر صومكم، واشربوا، وباشروا نساءكم ... من أول الليل إلى أن يقع لكم ضوء النهار بطلوع الفجر من ظلمة الليل وسواده"[2]، بيد أن المراد بالخيط الأبيض هنا: الفجر الصادق الذي يطلع ساطعاً، ويملأ الأفق، دون الفجر الكاذب فإنه لا يحل شيئاً ولا يحرمه.

جاءت لفظة ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ بصيغة التفعل، إشارة إلى أن الناظر يتكلف في نظره، ويكد بصره في ذلك، وكأن الطالع يتكلف الطلوع، ولعل هذا هو السرُّ في اختيارها في هذا

(١) جامع البيان: ٢٤٨/٣.

(٢) جامع البيان: ٢٤٨/٣.

السياق دون لفظة "يبين" لأن ذلك يكون بعد الوضوح التام[1]، يدل على ذلك ويؤكده لفظة "خيط" فإن فيها إشارة إلى الخفاء والدقة، فيكون الصبح في أول طلوعه مشرقاً خافياً، كما يكون سواد الليل منقضياً مولياً، ولذا فهما جميعاً ضعيفان في أول أمرهما، ولذا احتيج كل واحد منها إلى تبين، إلا أن خيط النهار يزداد انتشاراً، وخيط الليل يزداد استراراً.[2]

ومن المسائل المهمة المتعلقة بهذه الآية: الإشارة إلى التشبيه الذي تضمنته الآية في قوله ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ فمما ينبغي تحقيقه في هذه المسألة أن الخيط الأبيض والخيط الأسود في هذه الآية ذُكرا على سبيل التشبيه لا الاستعارة، وذلك لوجود قوله ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾، فقد جاءت "بياناً للخيط الأبيض، فصار المشبه مذكوراً على وجه من الوجوه، والخيط الأسود وإن لم يذكر بيانه يعني من الليل، إلا أن القياس جعله كالمذكور".[3]

وقد أشار إلى هذه الحقيقة وقررها الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، يقول: " فإن قلت: أهذا من باب الاستعارة أم من باب التشبيه؟ قلت: قوله ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾، أخرجه من باب الاستعارة، كما أن قولك: "رأيت أسداً" مجاز، فإن زدت "من فلان" رجع تشبيهاً، فزيد "من الفجر" فكان تشبيها بليغاً، وخرج من الاستعارة".[4]

وبيان ذلك: أن شرط الاستعارة – كما هو معلوم – ألا يُذكر المشبه، وإنما يُكتفى بذكر المشبه به، أما في هذه الآية فقد ذُكر كل من طرفي التشبيه " فإن كل واحد من الخيطين مشبه به، وقد ذُكر صريحاً، والمشبه في أحد الشبهين وهو "الفجر" مذكور

(١) انظر: نظم الدرر: ٣/٨٥.

(٢) انظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٢١.

(٣) التصوير البياني: ٢٠٦.

(٤) الكشاف: ١/٣٣٩.

صريحاً، وفي التشبيه الآخر وهو تشبيه الليل بالخيط الأسود مذكور دلالة، فلما انتفى شرط الاستعارة انتفى المشروط "[1]، فقد انتُفي شرط الاستعارة وذلك لوجود قوله ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾.

وقد عرض لهذه المسألة وحررها د. محمد محمد أبو موسى، وبينها أتم بيان، يقول: " ومثل هذه الآية قول ابن نباته:

إذا نظرتْ أرض الخليج بأعين		من النور قامت للصوارم سرق

فقوله "من النور" كقوله – تعالى – ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ أي أنه تشبيه؛ لأن "من" البيانية هذه بينت المراد بالأعين، ونصَّتْ على المشبه، وقاعدة الاستعارة: ألا يُنص فيها على المشبه، ولولا "من" البيانية وما بعدها لكانت الآية والبيت من الاستعارة التصريحية."[2]

وللبيضاوي (ت ٦٨٥ هـ)، وقفة بليغة تحدث فيها عن التشبيه، وبيان نوعه، يقول: " شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق، وما يمتد معه من غبش الليل بخيطين أبيض وأسود، واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾، عن بيان الخيط الأسود؛ لدلالته عليه، وبذلك خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل "[3]، ولذا فالتشبيه في الآية تمثيلي تجريدي، وقد ذكر هذا النوع، ونصَّ عليه ابن التمجيد (ت٨٨٠ هـ)، في حاشيته عند شرحه لكلام البيضاوي السابق، يقول: " وبذلك أي وبقوله ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ خرج الخيطان أن يكونا استعارتين في بياض النهار، وسواد الليل إلى أن يكونا من باب التشبيه التمثيلي التجريدي، أما كونه تمثيلا فلكون كل من طرفي التشبيه هيئة مركبة

(١) حاشية محيي الدين زادة: ٤٩٦/١ .

(٢) التصوير البياني: ٢٩١ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢١٩/١ .

منتزعة مما فوق الواحد، وأما كونه تجريداً؛ فلأنه جرد من الفجر الذي هو بياض النهار الخيط الأبيض الذي هو بياض النهار، فقد جرد من الفجر فجراً آخر مبالغة في معنى التميز المستفاد من قوله ﴿ يَتَبَيَّنَ﴾ فكأنه قيل: حتى يتميز بياض النهار الكائن من بياض النهار من سواد الليل الكائن من سواد الليل". [1]

وفي مجيء حرف العطف " ثم " بدلالته على التعقيب مع التراخي قبل الأمر في قوله ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ إشارة إلى الوقت الطويل الذي يكون فيه الصائم مفطراً في وقت الليل، فكأن في الوقت فسحة وسعة، وهذا من رحمة الله ولطفه بعباده حين أباح لهم الأكل والشرب والجماع إلى طلوع الفجر. [2]

والأمر في قوله ﴿ أَتِمُّوا ﴾ يقتضي الوجوب من غير خلاف – كما يذكر القرطبي (ت ٦٧١ هـ)– فيمسك الصائم عن جميع المفطرات إلى غروب الشمس. [3]

وبين قوله ﴿ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ وقوله ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ ﴾ طباق سلب، وتكمن بلاغة هذا الطباق أن فيه استيفاء لأحكام الصيام، وبياناً للأحكام كلها في جميع الأحوال التي يكون عليها الصائم ليلاً ونهاراً، والمقام يستدعي هذا الإيضاح، وذلك البيان.

والنهي في قوله ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ ﴾ للتحريم، وهو مستثنى من عموم إباحة المباشرة في قوله ﴿ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾[4]، بيد أن هذا التحريم مرتبط بالاعتكاف، ومن هنا تتجلى بلاغة الجملة الحالية في قوله ﴿وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ ودلالتها في آيات الصيام.

ثم ختم – سبحانه – آيات الصيام بقوله ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وقد توافر كل ما في هذا الختام وتضافر فيما بينه في إعلاء شأن هذه

---

(١) حاشية ابن التمجيد: ٢/٣٥.

(٢) انظر: تأملات في سورة البقرة: ٢/١٠٥٤.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢/٢١٨.

(٤) انظر: تفسير القرآن الحكيم: ٢/١٧٨.

الأحكام، وإظهار قدرها، وقد تجلى ذلك – أولاً – في قوله ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ففي هذا الختام تذييل، وهو طريق من طرق الإطناب، وهو تذييل غير جارٍ مجرى المثل؛ لكونه لا يستقل بذاته، ولارتباطه – كذلك – بآيات الصيام وأحكامه، وتتجلى بلاغة هذا التذييل أن فيه تحذيراً من مخالفة ما شرعه الله من أحكام الصيام.[1]

ويرى القونوي (ت ١١٩٥ هـ) أن قوله ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ اعتراض جيء به بين المتعاطفين، يقول: " وهذا القول جملة معترضة بين المتعاطفين، فإن قوله (ولا تأكلوا) عطف على ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ ﴾، وفائدة الاعتراض: التنبيه على أن تلك الأحكام إنما شُرعتْ لأن تتقوا فاجتهدوا في الامتثال؛ حتى تكونوا من زمرة المتقين، وإن لم يجعل عطفاً فلا اعتراض ".[2]

وقد تمت الإشارة إلى الأحكام السابقة بالأداة البعيدة في قوله ﴿ تِلْكَ ﴾ وفي ذلك تعظيم لها، والإشارة إلى أنها بلغت مبلغاً عظيماً، ومقاماً رفيعاً من العلو والمنزلة، يؤكد هذا الأمر ويحققه إضافة الحدود إلى الله في قوله ﴿حُدُودُ اللَّهِ ﴾ فهي إضافة تعظيم، وذلك أن الشيء ينال العظمة بحسب ما يُضاف إليه، ومن ذلك: كتاب الله، وبيت الله، فلا غرو – والحالة هذه – أن يُشار إلى هذه الحدود إشارة تعظيم من خلال اسم الإشارة البعيدة.

كما أن في هذه الإشارة – كما يذكر أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) – مبالغة في عدم الوقوع فيها، ولعل هذا هو السرُّ في عدم ورودها في القرآن منكرة، ولا معرفة بالألف واللام كذلك.[3]

والمراد بـ﴿حُدُودُ اللَّهِ ﴾ في هذه الآيات جميع الأحكام السابقة، يدل على ذلك: جمع

---

(١) انظر: التحرير والتنوير: ١٨٦/٢.

(٢) حاشية القونوي: ٣٨/٢.

(٣) انظر: البحر المحيط: ٦٢/٢.

لفظة ﴿حُدُودُ﴾، فدل هذا الجمع: أن المراد بذلك جميع ما تضمنته آيات الصيام كلها من أحكام، وما اشتملت عليه من أوامر ونواهي.

وفي التعبير عن الأحكام بالحدود نكتة بليغة، تتجلى بلاغتها من خلال دلالة لفظة "الحد" وإيحائها، وبيان ذلك: أن الحد هو المانع، ومنه سُمي الحديد حديداً؛ لكونه يحول وصول السلاح إلى البدن[1]، كما أن الحدود: حواجز الأشياء ونهاياتها، فإذا تجاوزها الإنسان يكون دخل في شيء آخر[2]، كما أن هذه الحدود جامعة مانعة، فهي واضحة المعالم، ولذا فهي تمنع أن يدخل فيها ماليس منها[3]، كما تمنع – كذلك – أن يخرج منها ما هو منها، وفي إطلاق لفظة "الحدود" على الأحكام الشرعية استصحاب لهذه المعاني كلها؛ لكون تلك الأحكام قد "حددت الأعمال، وبينت أطرافها وغاياتها، حتى إذا تجاوزها العامل خرج عن حد الصحة، وكان عمله باطلاً."[4]

فإذا كانت الحدود بهذه المنزلة، وبتلك العظمة فلا غرو أن يأتي النهي عن اقترافها وتجاوزها بهذه الصورة، وبهذه البلاغة في قوله ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، والنهي عن الاقتراب من هذه الحدود أبلغ في النهي من قوله "فلا تعتدوها"؛ لأن فيه مزيداً من أخذ الحيطة والحذر من القرب من هذه الحدود؛ لأن القرب منها سبب للوقوع فيها كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.

وقد أشار البيضاوي(ت ٦٨٥ هـ) في تفسيره إلى بلاغة قوله ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ ودلالاته، يقول: "﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي الأحكام التي ذُكرتْ فلا تقربوها، نهى أن يقرب الحاجز بين الحق والباطل؛ لئلا يداني الباطل فضلاً أن يتخطى عنه...

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢/٢٢٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ٢/١٨٦.

(٣) انظر: فتح القدير: ١/١٨٦.

(٤) تفسير القرآن الحكيم: ٢/١٧٦.

وهذا أبلغ من قوله (فلا تعتدوها).[1]

وقد تناول القونوي (ت ١١٩٥ هـ)كلام البيضاوي بالشرح فزاده بسطة وبياناً، معللا كيف كان قوله ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أبلغ من (فلا تعتدوها) أما من المبالغة أو من البلاغة، وجه الأبلغية لما مرَّ من أن النهي عن قرب الشيء يستلزم النهي عن ذلك الشيء، والكناية أبلغ من التصريح ".[2]

كذلك النهي أبلغ من قوله " فلا تفعلوها" ؛ " لأن القرب يشمل النهي من فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه، والعبد مأمور بترك المحرمات، والبعد عنها غاية ما يمكنه ذلك، وترك كل سبب يدعو إليها "[3]، ولذا فإن قوله ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ كناية ومبالغة في النهي ؛ لكون القرب من الشيء مستلزم الخروج منه[4]، ولهذه المعاني كلها جاء النهي عن عدم الاقتراب من هذه الحدود بهذا الأسلوب ؛ " لئلا يداني الباطل، وأن يكون في الواسطة متباعد عن الطرف، فضلاً أن يتخطاه".[5]

ولسيد قطب (ت ١٣٨٥هـ) وقفة مع دلالات هذا النهي وإيحاءاته، يقول: " النهي هنا عن القرب ؛ لتكون هناك منطقة أمان، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، والإنسان لا يملك نفسه في كل وقت، فأحرى به ألا يعرض إرادته للامتحان بالقرب من المحظورات المشتهاة اعتماداً على أنه يمنع نفسه حين يريد ؛ ولأن المجال هنا مجال حدود للملاذ والشهوات كان الأمر ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ والمقصود هو المواقعة لا القرب، ولكن

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢٢١/١ .

(٢) حاشية القونوي: ٣٧/٢ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ١٤٨/١ .

(٤) انظر: التحرير والتنوير: ١٨٦/٢ .

(٥) الكشاف: ٣٤٠/١ .

هذا التحذير على هذا النحو له إيحاؤه في التحرج والتقوى ".[1]

جاء النهي هنا بقوله ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ بعد قوله ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ وثمة مواضع أخرى في القرآن الكريم جاء النهي فيها بقوله ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [2]، وقد ذكر الشيخ عبدالرحمن السعدي (ت١٣٧٦هـ) – رحمه الله – فرقاً بين هاتين العبارتين، مبيناً في الوقت نفسه المقامات التي يأتي فيها كل واحد من هذين النهيين، يقول: "وحيث قال الله – تعالى – ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ كان المراد بها: ما أحله لعباده، وما فصله من الشرائع، فإنه نهي عن تجاوزها، وأمر بملازمتها، كما أمر بملازمة ما أحله من الطعام والشراب واللباس والنكاح، ونهي عن تعدي ذلك إلى ما حرم من الخبائث...، وحيث قال – تعالى – ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ كان المراد بذلك: المحرمات، فإن قوله ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ نهي عن الدنو والقرب منها من أي ناحية من نواحيها، فهو نهي عن مقدماتها، ونهي عن أسبابها الموصلة إليها، والموقعة فيها، ونهي عن فعلتها من باب أولى... فالخير والسعادة والفلاح في معرفة حدود الله، والوقوف عندها، والمحافظة عليها، كما أن أصل كل الشر، وأسباب كل العقوبات: الجهل بحدود الله، وترك المحافظة عليها".[3]

ومن رحمته – سبحانه – بعباده أن يبين لهم الآيات، ولذا امتن عليهم بذلك في قوله ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ فهي منة عظمى، وهو – سبحانه – لا يمتن إلا بأمر عظيم، ولذا فإن الغرض من ذكر هذه الحقيقة والامتنان بها، هو : " تعظيم حال البيان، وتعظيم رحمته في ذكره مثل هذا البيان ".[4]

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١٧٠ .

(٢) البقرة: ٢٢٩ .

(٣) القواعد الحسان: ٩٠ .

(٤) التفسير الكبير: ٥/ ٩٩ .

وفي مجيء لفظة ﴿ يُبَيِّنُ ﴾ فعلاً مضارعاً إظهار لهذه الرحمة بالعباد، وذلك أنه بيان متكرر الحدوث، ومتجدد الوقوع، يحدث مرة بعد أخرى، وفي ذلك مزيد من العطف والعناية والرعاية بالعباد.

والإشارة في قوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم بيانه وإيضاحه من الأحكام السابقة المتعلقة بالصيام، فقد بينها – سبحانه – أتم بيان، وأوضحها لهم أكمل إيضاح وأبلغه، وقد جاء البيان هنا للناس كل الناس بطريق العموم، وقد يكون فيه مجاز مرسل، بأن أطلق الكل، وأراد الجزء، فيكون الغرض من هذا العموم الخصوص، أي " خصوص فيمن يسره الله للهدى، بدلالة الآيات التي تتضمن أن الله يضل من يشاء ".[1]

بيد أن الآية أطلقت هذا البيان، ولعل هذا هو المتناسب مع عظمة البيان، كما أنه هو المناسب مع الامتنان، وذلك أن تخصيصه يحدُّ من هذا الامتنان، ويضيق دائرته، بل ربما ينافيه، وقد تحدث د. حسن محمد باجودة عن دلالة هذا الإطلاق، يقول: " أي إن الله يبين آياته للناس كل الناس؛ لعلهم يتقون، وحينما تكون لفظة "الناس" شاملة للمؤمنين يكون ترجي ارتقائهم إلى التقوى بفضل من الله وعون من أقصر الطرق، وحينما تكون لفظة " الناس " شاملة لغير المؤمنين يكون ثمة الترجي ذاته، ولكن الطريق المؤدي للتقوى في حق هؤلاء طريق طويل، ويعتبر اعتناق هذا الدين – الذي رضيه الله تعالى لعباده – أولى الخطوات؛ للسير في هذا الطريق الصحيح، وفي كلتا الحالتين ترجي التقوى قائم وارد ".[2]

وقد تضمن قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ حذفاً، وقد أشار البيضاوي(ت ٦٨٥ هـ) إلى الحذف وتقديره، يقول: " ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ مخالفة الأوامر والنواهي "[3]، بيد أن الآية أطلقت، ولو ذُكر المفعول لانحصر في المذكور، ولذا فهي تشمل كل تقدير مراد يتناسب

---

(١) البحر المحيط: ٦٢/٢ .

(٢) تأملات في سورة البقرة: ١٠٥٦/٢ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢٢١/١

مع سياقه، والغرض الذي سيقت له آيات الصيام، ويتوافق – كذلك – مع الحكمة من تبيين الله آياته للناس.

و" لعل" هنا بمعنى "كي"، يدل على ذلك قول القونوي (ت ١١٩٥ هـ): " ولعل هنا بمعنى كي، أي لكي تتقون" [١]

وفي ختم الآية في بيان الحكمة من هذا البيان في قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ كثير من الأسرار واللطائف المتعلقة بأحكام الصيام، وقد استوقف هذا الأمر كثيراً من المفسرين، فبينوا الغرض من ختم آيات الصيام بالتقوى، وقد أشار أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) إلى الحكمة من ذكر التقوى في هذا المقام، يقول – بعد أن استقرأ ورود التقوى في القرآن الكريم – مبيناً أن ورود التقوى في القرآن " يكون عقب أمر فيه مشقة، وكذلك جاء هنا؛ لأن منع الإنسان من أمر مشتهى بالطبع اشتهاء عظيماً بحيث هو ألذ ما للإنسان من الملاذ الجسمانية شاق عليه ذلك، ولا يحجزه عن معاطاته إلا التقوى، فلذلك خُتمت الآية بها، أي على رجاء حصول التقوى لهم بالبيان الذي بيَّن الله لهم " .[٢]

كما أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين التقوى والصيام، فهي أجل حكم الصيام، وأبرز غاياته، وقد تمَّ ذكر ذلك والنص عليه في أول آيات الصيام في قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، وفي ذكرها في الختام تذكير بها، وحث عليها، كما أن ذكر التقوى في أول آيات الصيام وآخرها إشارة واضحة إلى أثر الصيام المباشر في حصول التقوى، فهو سبب رئيس ومهم في وصول المسلم إلى منزلة التقوى التي هي أعلى المراتب، وأفضل المقامات، ومن خلال هذا

---

(١) حاشية القونوي: ١/٣٧.

(٢) البحر المحيط: ٢/٦٢.

الختام" تلوح التقوى غاية يبين الله آياته للناس ليبلغوها، وهي غاية كبيرة يدرك قيمتها الذين آمنوا المخاطبون بهذا القرآن في كل حين ".[1]

وفي ذكر التقوى وختم الآيات بها عطف آخر الكلام على أوله، وفي ذلك تلاحم لأجزاء هذا الكلام، ومظهر من مظاهر ترابطه، وتلاؤم أجزائه، وذلك سرٌّ من أسرار القرآن الكريم، ووجه من أوجه إعجازه.

* * *

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١٧٠.

الخاتمة :

وبعد هذا الإبحار الماتع، والصحبة الطيبة لآيات الصيام المباركة، وبعد الغوص في أعماق دررها البيانية، والنظر في أسرارها البلاغية، بعد ذلك كله تصل الدراسة إلى خاتمتها، وتقف عند نهايتها، علها أن تكون قد حققت غايتها، وبلغت مبتغاها، وثمة نتائج قد أمكن الاهتداء إليها من خلال هذه الدراسة، ومن أبرزها ما يأتي :

١- أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين آيات الصيام وبين السورة التي وردت الآيات فيها ؛ إذ إن الغاية من فريضة الصيام هي التقوى بنص القرآن الكريم، وقد عُنيت سورة البقرة بأمر التقوى والحديث عنها وذكرته كثيراً وقررته، وبينتْ كل ما يمت لها بسبب من قريب أو بعيد، فلا غرو إذن أن تُذكر آيات الصيام في سورة البقرة، وأن يُقصر ذكرها عليها.

٢- جاءت آيات الصيام متوافقة مع الآيات التي تقدمتها، متناسبة كذلك مع ما سبقها من موضوعات، فالناظر في آيات الصيام، المتأمل لموقعها يجد أنها سُبقتْ بكثير من الأحكام الشرعية، فكانت توطئة لآيات الصيام، وكأنها كانت تمهد لها، فقد سُبقت بآيات القصاص، وبآيات الوصية.

كما أن ذكر الصيام في هذا الموضع يتوافق مع ترتيبه في الإسلام، فهو الركن الرابع من أركان الإسلام، ولذا فقد سُبقت هذه الآيات بالحديث عن الإسلام، وعن الصلاة، وعن الزكاة من خلال الحديث عن الأموال، وعن الوصية ، ومن ثم جاء الحديث بعد ذلك عن الصيام، فكان ذلك منتظماً مع موقعه في الإسلام.

٣- أن آيات الأحكام – ومنها آيات الصيام – تتميز بالدقة والإحكام، فقد تماسكت آياتها، وترابطت أجزاؤها، وعُطف أولها على آخرها، كما أنها تتوخى ألفاظها بدقة تدل على المراد، وتعبر عن الغرض بكل بيان ووضوح .

٤- توافرت كثير من الأساليب البلاغية في آيات الصيام، فقد زخرت الآيات بشتى الأسرار البلاغية، والصور البيانية، وقد وُظفتْ تلك الأسرار توظيفاً بليغاً في بيان

الأحكام وإظهارها، فلم تكن هذه الأساليب مقصودة لذاتها، ولا مرادة بعينها، بل كانت سبيلاً لإظهار الأحكام وبيانها.

٥- في توافر الأساليب البلاغية في آيات الصيام رد على من يظن خلو آيات الأحكام من الأساليب البلاغية، فقد أثبتت هذه الدراسة خلاف هذا الأمر، فقد بينتْ الكم الهائل للأساليب البلاغية التي تزخر بها آيات الصيام، وفي هذا إشارة إلى تنوع التعبير في آيات الأحكام، فحيناً يأتي الخطاب مباشراً، فيستخدم الحقيقة وسيلة في بيان هذه الأحكام، وحيناً آخر يستخدم المجاز – بصوره المتنوعة – سبيلاً في بيان هذه الأحكام وإظهارها، ولا غرو أن تتوافر هذه الأساليب؛ لِما تتضمنه في طياتها من أحكام وتشريعات، فلا غرو أن تكون في غاية في البلاغة، وغاية في الإحكام

٦- برز في آيات الصيام كثير من الأساليب البلاغية، وقد وُظفت تلك الأساليب توظيفاً بليغاً في بيان أحكام الصيام وإظهارها، وقد كان ورود هذه الأساليب لافتاً للنظر، ومن أبرز هذا الأساليب مايأتي:

أولاً: الطباق والمقابلة، ولعل السرَّ في ذلك هو: طبيعة هذين المحسنين البديعيين؛ لِما يتميزان به من ذكر للألفاظ وأضدادها، وفي ذلك بيان للحكم المتحدث عنه، وذكر لجميع أحكامه؛ لكي تتضح أجزاؤه، وتحدد معالمه، فلا يُترك شيء مما يتعلق بالحكم الشرعي إلا يذكر إما بالنص عليه، وإما لحضور ضده في ذهن المتلقي.

ثانياً: أسلوب التشبيه، فقد كان هذا الأسلوب حاضراً في آيات الصيام، ولعل السرَّ في ذلك: توظيف خصائصه البيانية في بيان أحكام الصيام وإيضاحها أتم إيضاح؛ لِما يتميز به من تصوير للمعنى وبيانه، ومن نقله من المعقول إلى المحسوس، ومن الخفي إلى الجلي.

ثالثاً: الكناية، وكأن ورود أسلوب الكناية في آيات الصيام قد جاء على خلاف الأصل، إذ الأصل في آيات الصيام الوضوح والبيان، والأمر كذلك، أما الكناية فقد

جاءت في آيات الصيام حين يكون الحديث عن الأحكام المتعلقة بين الرجل وزوجه، فيما يتعلق بالجماع وغيره، والكناية وسيلة بيانية مؤثرة في الحديث عن الأحكام التي لا يحسن التصريح بها، ومن هنا بزرت في آيات الصيام.

وأما التوصيات التي أوصي بها في خاتمة هذه الدراسة: فهو التوجه إلى دراسة آيات الأحكام دراسة بلاغية؛ للنظر في أسرارها وأساليبها، فإن فيها معيناً ثراً للواردين، كما أوصي – كذلك – بالتوجه إلى الدراسات القرآنية بشتى فروعها، وتعدد تخصصاتها، فسيظل القرآن نبعاً فياضاً لا ينضب ولا ينفد، فلا بد أن تتجه الهمم والنفوس لهذا الأمر؛ فإن المستشرف نبيل، والغاية عظيمة، ومن يخطب الحسناء لم يغله المهر، فلا بد من شحذ الهمم، وتقوية العزائم، وصرف الطاقات والأوقات في دراسة بلاغة القرآن الكريم.

* * *

فهرس المصادر والمراجع:

١- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت).

٢- **إملاء ما منَّ به الرحمن في وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن**، لأبي البقاء العكبري، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، دار الحديث القاهرة، (د. ت).

٣- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، المعروف بتفسير البيضاوي، لناصر الدين عبدالله البيضاوي، مؤسسة شعبان، للنشر والتوزيع، بيروت، (د. ت).

٤- **الإيضاح في علوم البلاغة**، للخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح د. محمد عبدالمنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب، شمل، ١٩٨٩م.

٥- **البرهان في علوم القرآن**، لبدر الدين محمد الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار الثراث، القاهرة، (د. ت).

٦- **البلاغة العالية**، سعيد أحمد جمعة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط: ١، ١٤٢٤هـ.

٧- **البحر المحيط**، لأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض، ود.زكريا عبدالمجيد النوني، ود. أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية بيروت، ط: ١: ١٤١٣ هـ.

٨- **تأملات في سورة البقرة**، د. حسن محمد باجودة، طُبع بإذن من إدارة المطبوعات بمكة المكرمة، ١٤١٠هـ.

٩- **التحرير والتنوير**، للشيخ محمد بن طاهر بن عاشور، (د. ت).

١٠- **التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل علم البيان**، د. محمد محمد أبوموسى، مكتبة وهبة القاهرة، ط: ٤: ١٤١٨ هـ.

١١- **تفسير القرآن**، للإمام أبي المظفر السمعاني، تحقيق أبي تميم ياسين إبراهيم، و أبي بلال غنيم بن عباس، دار الوطن، الرياض، ط: ١، ١٤١٧هـ.

١٢- **تفسير القرآن العظيم**، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، قدَّم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السلام، الرياض، ط: ١، ١٤١٣هـ

١٣- **التفسير القرآني للقرآن**، عبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي، مطبعة السنة المحمدية، (د. ت).

١٤- **التفسير القيم**، لابن القيم، تحقيق محمد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، (د. ت).

١٥- **التفسير الكبير**، أو مفاتيح الغيب، للإمام الفخر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت،

ط: ٣، ١٤١١هـ .

١٦- **تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار**، لمحمد رشيد رضا، مكتبة القاهرة، (د. ت).

١٧- **تلخيص البيان في مجازات القرآن**، للشريف الرضي، عالم الكتب، ط: ١، ١٤٠٦ هـ .

١٨- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: محمد النجار، تصحيح: محمد البسام، دار المدني؛ جدة، ١٤٠٨ هـ .

١٩- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، لابن جرير الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار هجر، القاهرة، ط: ١، ١٤٢٢هـ .

٢٠- **الجامع لأحكام القرآن**، لأبي عبدالله محمد القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ٥، ١٤١٧هـ .

٢١- **حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي**، المطبعة العامرة، تركيا، ١٢٨٥هـ.

٢٢- **حاشية الروض المربع شرح زاد المستنقع**، جمع عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، ط: ٥، ١٤١٣هـ.

٢٣- **حاشية زادة على تفسير البيضاوي**، لمحيي الدين شيخ زادة، دار إحياء التراث العربي بيروت (د. ت).

٢٤- **حاشية القونوي على تفسير البيضاوي**، المطبعة العامرة، تركيا، ١٢٨٥هـ.

٢٥- **خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية**، د. عبدالعظيم إبراهيم مطعني، مكتبة وهبة القاهرة، ط: ١: ١٤١٣ هـ .

٢٦- **دلائل الإعجاز**، لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني، جدة، ط: ٣: ١٤١٣هـ .

٢٧- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، لأبي الفضل شهاب الدين محمد الألوسي البغدادي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ .

٢٨- **سبل الاستنباط من القرآن والسنة: دراسة بيانية ناقدة**، للدكتور محمود توفيق، مطبعة الأمانة، القاهرة، ط: ١، ١٤١٣هـ .

٢٩- **شرح العقيدة الواسطية**، لمحمد بن صالح العثيمين، إعداد: فهد بن ناصر السليمان، دار الثريا للنشر، الرياض، ط: ١، ١٤١٩هـ .

٣٠- **شرح شعر النابغة**، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، (د. ت).

٣١- **الصبغ البديعي في اللغة العربية**، للدكتور أحمد إبراهيم موسى، دار الكاتب العربي،

القاهرة، ١٣٨٨هـ.

٣٢- **صحيح البخاري**، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط: ١، ١٤١٧هـ.

٣٣- **صحيح مسلم**، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار السلام، الرياض، ط: ١، ١٤١٩هـ.

٣٤- **علم البيان: دراسة تحليلية لمسائل علم البيان**، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط: ٢، : ١٤١٨هـ.

٣٥- **علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني**، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط: ١، : ١٤١٩هـ.

٣٦- **عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي**، دار الصادر، بيروت، (د. ت).

٣٧- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي، دار البيان للتراث، القاهرة، ط: ٢، ١٤٠٩هـ.

٣٨- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير**، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر بيروت، ١٤٠٣ هـ.

٣٩- **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية**، للإمام سليمان العجيلي الشهير بالجمل، ضبطه وخرج آياته: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط: ١، ١٤١٦ هـ.

٤٠- **في ظلال القرآن**، سيد قطب: دار العلم للطباعة والنشر جدة، ط: ١٢، ١٤٠٦هـ.

٤١- **القواعد الحسان لتفسير القرآن**، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٢هـ.

٤٢- **الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢هـ.

٤٣- **مجاز القرآن**، لأبي عبيدة، عارضه بأصوله وعلق عليه: د. فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي بالقاهرة، (د. ت).

٤٤- **محاسن التأويل**، لجمال الدين القاسمي، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العلمية، (د. ت).

٤٥- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، لأبي محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية بيروت، ط: ١: ١٤١٣هـ.

٤٦- **مسند الإمام أحمد**، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩هـ.

٤٧- **المطول في شرح تلخيص المفتاح**، لسعد الدين التفتازاني، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٣٣٠هـ

٤٨- **معالم التنزيل، للبغوي**، إعداد وتحقيق: خالد عبدالرحمن العك و مروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط: ٢، ١٤٠٧هـ.

٤٩- **معاني القرآن، للفراء**، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد على النجار، د. عبدالفتاح شلبي، وعلى النجدي ناصف، دار السرور، (د. ت).

٥٠- **معاني القرآن وإعرابه**، لأبي إسحاق إبراهيم الزجاج، تحقيق: د. عبدالجليل عبده شلبي، دار الحديث القاهرة، ط: ٤ : ١٤١٤ هـ.

٥١- **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، لجلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤٠٨هـ.

٥٢- **مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح**، لابن يعقوب المغربي، طُبع ضمن " شروح التلخيص"، توزيع مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، (د. ت).

٥٣- **منهج البحث البياني عن المعنى القرآني في سياق سورة**، للدكتور محمود توفيق، مطبعة الأخوة الأشقاء، مصر، (د. ت).

٥٤- **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن**، للدكتور محمد عبدالله دراز، دار القلم، الكويت، ط: ٢، ١٣٩٠هـ.

٥٥- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، ط: ٢ : ١٤١٣ هـ.

* * *